هِدايَةُ اَلْمَنانِ فِي مُرادِ سوَرِ القُرْآنِ

"سورة الكهف"

بقلم الباحث
أواب عبد الرحمن (أبو أنس)

سورة الكهف

(الأخذ بالأسباب التي هدانا الله إليها في كتابه القويم لإقامة دينه، مع حسن الاستعانة به سبحانه في كل الأمور)

للاطلاع على الجزء الأول من البحث بدءاً من سورة الفاتحة وحتى نهاية سورة الأنعام، يرجى الرجوع إلى الموقع الإلكتروني "صيد الفوائد" بالضغط على الرابط التالي: http://saaid.net/book/21/15756.pdf

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

مقدمة سورة الكهف

نبذة عن فضل سورة الكهف

- روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِم من الدجال "(١).
- وفي لفظ للترمذي: " من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف"، وقال: حسن صحيح (٢).
- وفي لفظ لأحمد ومسلم: " من قرأ العشر الأواخر"، ورواه النسائي عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: " من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال " (٣).
- وقد روى الحاكم عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: " من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين"، ثم قال: هذا حديث الإسناد، ولم يخرجه البخاري ومسلم (٤)".

ما جاء في سبب نزول السورة

- ذكر إسحاق عن ابن عباس أنه قال: بعثت قريش نضر ابن الحارث، وعقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود فقالت لهم: سلوه عن ثلاثة يأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَول فرَوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح، ما هو؟ فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا

(١) رواه أحمد في مسنده (١٩٦/٥) ومسلم (٨٠٩/ ٢٥٧).
(٢) رواه الترمذي(٢٨٨٦).
(٣) رواه أحمد في مسنده (٤٤٦/٦).
(٤) الحاكم في المستدرك (٣٦٨/٢).

محمد، أخبرنا: فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ ": أخبركم غداً بما سألتم عنه " ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها خبر ما سألوه عن أمر الفتية والرجل الطوَّاف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾الآية [الإسراء: ٨٥] (١).

- وروى الإمام أحمد في مسنده في سبب نزول ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ عن ابن عباس: أن قريش قالت ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فنزلت الآية، فقال اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً. قال ابن عباس: وأنزل الله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ ﴾[الكهف: ١٠٩] (٢).

قصة الكهف و رمزيتها ودلالتها

"الكهف " هو غار في جبل لجأ إليه مجموعة من الفتية، فراراً بدينهم من قومهم المشركين مخافة أن يفتنوهم عنه، وهؤلاء الشباب كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم –كما ذكر غير واحد من المفسرين (٣)– وكانوا في عيش رغيد وترف ومتاع، وكانوا على دين قومهم الزائف، فألهمهم الله رشدهم وهداهم إلى الإيمان، فاعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أنه لا إله إلا هو، وتركوا عبادة الآلهة المدعاة من دون الله.

وكان لا يعرف واحد منهم الآخر، فجمع الله قلوبهم على توحيده، وتوافقوا على عبادة الله وحده، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم الطاغية، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فربط الله على قلوبهم، فصدعوا بالحق وجهرا بتوحيد الله: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾[الكهف: ١٤]، ودعوا هذا الملك إلى الله عز وجل، فأبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، وأمر بخلع زينة قومهم التي كانت عليهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم، لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة

(١) عمدة التفسير، مختصر تفسير ابن كثير، ٤٦٣/٢.
(٢) مسند الإمام أحمد (٢٣٠٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: " إسناده صحيح "
(٣) عمدة التفسير، مختصر تفسير ابن كثير، ٤٦٦/٢.

توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة.

فلما وقع عزمهم على الهرب ومفارقة قومهم واعتزالهم، ألهمهم الله عز وجل مخرجاً وسبيلاً يلجأون إليه، فهداهم إلى كهف في جبل يأوون إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتطلَّبهم الملك، فعمّى الله عليه خبرهم. وحينما آووا إلى الكهف التجأوا إلى ربهم سائلين رحمته ولطفه بهم، وأن يهيئ لهم سبحانه وتعالى أمرهم كله، أمر اختباءهم فيسترهم عن أعين قومهم، وأمر معيشتهم في هذا المكان الضيق الخشن: ﴿ إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[الكهف: ١٠].

فتغمدهم الله برحمته وأسدل عليهم ستره، وتولى أمرهم، وحفظ دينهم، وجعلهم آية عجيبة من آياته الدالة على طلاقة قدرته، فألقى عليهم نومة طويلة برحمته، وتولى حفظ أبدانهم، وألقى عليهم مهابة لئلا يدنوا منهم أحد، حتى يبلغ الكتاب أجله الذي قدَّره الله في علمه. ولما انقضت رقدتهم التي شاءها سبحانه وتعالى لهم بحكمته البالغة ورحمته الواسعة، ابتعثهم من نومهم بعد ثلاثمائة وتسع سنين، أيقظهم ورد إليهم أرواحهم وهم كما كانوا قبل نومهم، صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً.

استيقظ الفتية وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس، وترددوا في كثرة نومهم ولكنهم ردوا أمرهم لله العليم وحده بشأنهم، وحينها أرادوا الطعام فبعثوا أحدهم بدراهم كانت معهم ليشتري لهم طعاماً من المدينة، وأوصوه بالحذر لئلا ينكشف أمرهم، فيأخذهم أصحاب السلطان في المدينة بالتعذيب أو فتنتهم عن عقيدتهم.

ويتوقف السياق القرآني عند عرض قصتهم في الكهف، ليعرض لنا ختام قصتهم باطلاع الله الناس عليهم، ليكون في ذلك حجة وآية على قدرته سبحانه ودليلاً على البعث والنشور، وأن الساعة لاريب فيها بمثال محسوس لهم.

ويبدو حين ظهور أصحاب الكهف أن أهل المدينة كانوا مؤمنين، فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين، وقد عرفوا أنهم الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهد بعيد، مضت عليه القرون، فصاروا أعجوبة في نظر الناس وحسهم، فلن يمكن أن يعاملوهم كبشر عاديين.. فيرحمهم الله عز وجل من هذا كله فيتوفاهم.

وتختتم قصتهم باختلاف الناس في شأنهم: ما هو عددهم؟ وكم لبثوا في كهفهم؟ كيف يخلدون ذكراهم ويحفظونها للأجيال بعدهم؟

وهنا يُنهي السياق القرآني قصتهم بالتأكيد على أن هذا الحادث الذي طواه الزمن هو من الغيب الموكول إلى علم الله وحده، فليترك إذن إلى علم الله، والله عز وجل وحده أعلم بعدتهم، وأعلم بما لبثوا، وهو وحده الذي سيتولى حفظ ذكراهم، وتخليدها في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا مبدل كلماته فيستحيل عليها التغيير أو التبديل: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾[الكهف: ٢٧].

ومن هذه القصة كما عرضتها سورة الكهف نجد أن رمزية (الكهف) ودلالته والله أعلم هي:

أولاً: اختصاص الله عز وجل وحده بعلم كل شيء، وتصريفه سبحانه لشئون عباده بحكمته ورحمته.

ثانياً: الفرار بالدين خوفاً من الفتنة، والتخلي عن متاع الدنيا في سبيل الاستقامة على دين الله وتوحيده.

ثالثاً: رعاية الله وقيوميته لمن يلتجأ إليه، ويستعن به في كل أموره.

خريطة سورة الكهف ووحدتها الموضوعية وهدفها العام

- وبعد التأمل بعون الله وتوفيقه في سورة الكهف، والتي لم تقتصر على عرض قصة أصحاب الكهف فحسب – فالقصص هو العنصر الغالب في السورة – وبعدها جاءت قصة صاحب الجنتين، ثم قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، نجد أن خطوط الترابط التي تربط قصص السورة وموضوعاتها والله أعلم هي:

- خط الترابط الأول: إحاطة الله بكل شيء علماً وقصور علم البشر، يدفع لليقين في تصريف الله لكل أمر بحكمته ورحمته.

- خط الترابط الثاني: ضرورة الأخذ بالأسباب مع حسن الاستعانة بالله في كل أمر من أمور الحياة.
- خط الترابط الثالث: رعاية الله وقيوميته لأوليائه الذين تخلوا عن زينة الحياة الدنيا في سبيل دينهم.

فإلى التفصيل بإذن الله..

خط الترابط الأول: إحاطة الله بكل شيء علماً وقصور علم البشر، يدفع لليقين في تصريف الله لكل أمر بحكمته ورحمته

- قال تعالى ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ، قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾[الكهف: ٢٥و ٢٦].
- يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: "لما نهى الله نبيه عن استفتاء أهل الكتاب في شأن أهل الكهف لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم بكل شيء، أخبره الله بمدة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده، فإنه من غيب السماوات والأرض، وغيبها مختص به، فما أخبره به عنها عن ألسنة رسله، فهو الحق اليقين الذي لا شك فيه، وما لا يُطلِع رسله عليه، فإن أحداً من الخلق لا يعلمه.

وقوله: ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ تعجب من كمال سمعه وبصره، وإحاطتها بالمسموعات والمبصرات، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات. ثم أخبر عن انفراده سبحانه بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعباده المؤمنين يخرجهم من الظلمات إلى النور وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ﴾أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق.

﴿ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدراً.. خلقاً وتدبيراً، والحاكم فيهم بأمره ونهيه.. وثوابه وعقابه"(١).

– وهكذا تؤكد سورة الكهف من بداياتها على إحاطة الله عز وجل بكل شيء علماً، كما تؤكد على قصور علم البشر، ففي ثنايا قصة أصحاب الكهف، تحدثت الآيات عن تساؤل الفتية بعد استيقاظهم عن فترة

(١) تيسير الكريم الرحمن في شرح كلام المنان، الشيخ السعدي، ص ٥٠٩.

لبثهم في الكهف: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[الكهف: ١٩] وهذا مبنى على ظن القائل الذي استشعر آثار نومٍ طويل، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن الله عز وجل وحده هو الذي يعلم حقيقة ما لبثوا :﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً.

ثم في ختام قصة أصحاب الكهف تستنكر الآيات على من يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً﴾[الكهف: ٢٢].. إن أمر هؤلاء الفتية موكول إلى الله، وعلمهم عنده وحده سبحانه، لذلك يوجه القرآن الرسول ﷺ إلى ترك الجدل حول عددهم، وإلى عدم استفتاء أحد من المتجادلين في شأنهم، الذين يتحدثون رجماً بالغيب أي: بلا علم، وألا يجادل فيهم إلا مراء ظاهراً أي: مبنياً على العلم واليقين.

ثم يوجه القرآن النبي ﷺ بعد عرض قصة أصحاب الكهف أن يسأل الله عز وجل إذا سُئل عن شيء لا يعلمه: ﴿ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ أي: توجه إلى ربك واسأله أن يوفقك للصواب والرشد في كل أمرك، وإذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله فيه –كما ذكر ابن كثير في تفسيره [1] – وهكذا نجد توجيهات القرآن للنبي ﷺ برد العلم إلى الذي يعلم حقائق الأمور وحده، كما جاءت هذه التوجيهات لتؤكد الحقيقة التي تكررت في ثنايا عرض القصة وهي أن الله عز وجل وحده هو الذي أحاط علمه بشأن هؤلاء الفتية: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ/ ربهم أعلم بهم / ربي أعلم بعدتهم﴾.. وهذا هو الدرس الأبرز الأول من قصة أصحاب الكهف، بضرورة رد علم الغيب إلى الذي يعلم حقائق الأمور وحده. الذي يصرف الأمور ويدبرها برحمته وحكمته.

ثم تستعرض لنا السورة في قصة موسى والعبد الصالح، سعى نبي الله موسى إلى طلب العلم من عبد صالح أرشده الله إليه، قال تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[الكهف: ٦٥]، والذي علَّم هذا العبد هو الله عز وجل، إذ رزقه الله جانباً من العلم بالغيب، أطلعه الله عليه بالقدر الذي

(١) عمدة التفسير، مختصر تفسير ابن كثير، ٤٧٢/٢.

أراده سبحانه، للحكمة التي أرادها، ومن ثم فلم يستطع موسى عليه السلام وهو نبي رسول أن يصبر على أفعال هذا العبد، واستنكر جميع ما قام به من خرق سفينة في وسط البحر مما يعرض ركابها للغرق ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[الكهف: ٧١]، ثم قيام هذا العبد الصالح بقتل غلاماً عمداً، وهو نفس في نظر نبي الله أنها بريئة لم ترتكب ما يوجب القتل: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً﴾[الكهف: ٧٤]، وأخيراً قيام هذا العبد بإقامة جدار أوشك على السقوط، في قرية لم يقدم أهلها لهما وهما جائعان، وأبوا أن يستضيفوهما، فاستشعر موسى عليه السلام تناقض هذا التصرف العجيب من هذا العبد الصالح أن يفعل ذلك دون أن يطلب أجراً على ما قام به: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾[الكهف: ٧٧]..

إنها جميعاً أفعال حسب ظاهرها تصطدم بالمنطق العقلي البشري، وبالأحكام الظاهرة، الذي تأخذ به الشريعة لذلك لم يسع موسى عليه السلام السكوت عنها، ولكن هذه الأفعال كلها كما ذكر العبد الصالح في نهاية القصة كانت بأمر الله لا بأمره، قال تعالى ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف: ٨٢] لقد أطلع الله عز وجل هذا العبد على شيء من علم الغيب الذي يختص به الله عز وجل وحده، والذي لا يطلع عليه أحد إلا من ارتضى، فكانت هذه الأفعال لحكمة بالغة مثلت رحمة من الله بعباده، وحققت لهم مصالح بعيدة لا تراها العين المحدودة، ولا يدركها العلم البشري القاصر الذي يدرك أن الأسباب المعقولة هي التي تحقق النتائج المرجوة، ولكن أمر هذه الحياة ليس موكولاً على العلم البشري الظاهر القاصر، ولكن أمر هذه الحياة موكولاً إلى الله وحده الذي يعلم الغيب البعيد، ويحرك الأحداث وفقاً لعلمه وحكمته لتحقق مصالح عباده برحمته.

– وهكذا تتناسب – في سياق سورة الكهف – قصة موسى والعبد الصالح، مع قصة أصحاب الكهف في ترك علم الغيب لله، الذي يدبر الأمر بحكمته ورحمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر،

الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار [١]..

خط الترابط الثاني: ضرورة الأخذ بالأسباب مع حسن الاستعانة بالله ﷻ في كل أمر من أمور الحياة

- قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً﴾[الكهف: ٨٣].

سأل المشركون رسول الله ﷺ عن أمر الرجل الطواف، فأوحى الله عز وجل إليه هذا النبأ المفيد والخطاب العجيب ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ﴾يقول ابن كثير: " أعطيناه مُلكاً عظيماً ممكناً، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحضارات، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم، ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾: يعنى علماً "[٢].

لقد أعطى الله عز وجل عبده ذي القرنين سلطاناً وطيد الدعائم، ويسَّر له الأسباب الموصلة لما وصل إليه، فهيء الله له أسباب الحكم والفتح، وأسباب العلم والقوة، وأسباب المال والسلطان، وأسباب البناء والعمران، وأسباب تعينه على الوصول بسهولة إلى أقاصي البلدان، فكيف تعامل الملك الصالح ذو القرنين مع هذه الأسباب؟

قال تعالى ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي: عمل بتلك الأسباب وأخذ بها، واستعملها على وجهها التي سخرت لأجله، فلم يغتر بها أو يبطش بها ويعتدي، ولكنه أحسن استخدامها في إقامة الحق في الأرض ونشر العدل بين الناس، وأعلن أن للمعتدين الظالمين عقابهم الدنيوي: ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً﴾[الكهف: ٨٧]وهذا حق الله فيمن كفر وأشرك بربه أو فسق واعتدى على غيره، وقد تكون عقوبته بقتل أو ضرب أو أسر ونحوه، أما المؤمنون الصالحون فأعلن أنه سيحسن إليهم ويلطف بهم ويكرم في معاملتهم: ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾[الكهف: ٨٨].. وهذا الجزاء في الدنيا قد منح الله عز وجل عباده الصالحين الأقوياء[٣] حق إقراره في الأرض، واختص سبحانه وتعالى نفسه بجزاء الآخرة بالعذاب النكر الذي لا نظير له للظالمين أو بالجزاء الحسنى والنعيم الأبدي للمؤمنين الصالحين.

(١) تفسير الشعراوي للقرآن الكريم، ٢٢٨٢/٣.
(٢) عمدة التفسير، مختصر تفسير ابن كثير، ٤٨٩/٢.
٣ أي الذين يملكون السلطة الشرعية ووفقا للضوابط الشرعية

ثم تعرض لنا سورة الكهف كيف أخذ هذا الملك الصالح بالأسباب التي أتاه الله إياها للانتقال من مغرب الأرض إلى مشرقها: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴾[الكهف: ٨٩- ٩٠]، ثم انتقل بعد ذلك إلى ما بين السدين، وهما سدان من سلاسل الجبال بين يأجوج ومأجوج وبين الناس ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَداً﴾[الكهف: ٩٢ -٩٤]لقد وجد قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، ولكن الله عز وجل أعطى لذي القرنين العلم الذي أعانه على فهم ما يقولونه، فطلبوا منه أن يقيم لها سداً في وجه يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض، وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له، ولكن هذا الحاكم الصالح لا يطمع أو يرغب في متاع الدنيا وزينتها فقال لهم: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي ما أعطاني الله من فضله خير لي من الذي تجمعونه، ثم طلب منهم أخذاً منه بالأسباب بأن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية على بناء هذا السد: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾[الكهف:٩٥]، فقام بتشييد سداً قوياً منيعاً من النحاس المذاب المصبوب في فتحات قطع الحديد المتوهج، فصارت سبائك من المعدنين في غاية الصلابة والاستحكام، منعت الناس من إفساد يأجوج ومأجوج الذين عجزوا عن صعود هذا السد المنيع الشاهق، كما عجزوا عن ثقبه والنفاذ منه، ولكن ماذا قال ذو القرنين بعدما نظر إلى هذا العمل الضخم الذي قام به؟ لم تأخذ ذي القرنين نشوة القوة والعلم، ولم يغتر بنجاحه، بل اعتبر أن ما صنعه هو محض توفيق وفضل من الله عز وجل عليه: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾[الكهف: ٩٨].

وهكذا تبرأ ذي القرنين من قوته إلى قوة الله، ورد النعمة إلى مُعطيها، ونسب الأسباب إلى مسببها، الذي استعان به قبل العمل، ثم توجه إليه شاكراً بعد تمامه..

- فالاختبار الحقيقي مع الأسباب ليس فقط في حالة الاستضعاف والتضييق، وانعدام الأسباب أو ضعفها، إنما الاختبار الحقيقي أيضاً يكون في حال وجود الأسباب وقوتها.

- لذلك تحكي لنا سورة الكهف قصة ذو القرنين ذلك النموذج الصالح الذي أتاه الله أسباب المال والقوة والعلم، فقام باستعمال هذه الأسباب على الوجه الذي يحبه الله عز وجل ويرضاه، ولم يغتر بها أو يفتن،

وذلك في مقابلة قصة صاحب الجنتين تحكيها لنا السورة..

ذلك النموذج الفاسد الذي أتاه الله أسباب المال والقوة، فاغتر بهما وافتتن، ولم ينسب الفضل لصاحب المال الحقيقي، ولم يرد القوة إلى مُسديها، قال تعالى﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾[الكهف: ٣٢– ٣٤] لقد أشرك صاحب الجنتين بالله، أشرك بالله نفسه والأسباب التي أتاها الله إياها، فخذله الله عز وجل فأهلك كل أشجاره وثماره، ولم تنفعه حينها أنصاره أو خدمه وحاشيته: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾[الكهف: ٤٢] وهكذا يتفرد الله سبحانه بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا بالله، ولا نصر إلا نصره ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً (٤٣) هُنَالِكَ الوَلايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ [الكهف: ٤٣– ٤٤].

- وهكذا تعلمنا سورة الكهف من خلال التناسب بين قصصها أن الأخذ بالأسباب واجب، أسباب طلب العلم كما طلبها موسى عليه السلام، وأسباب القوة والحكم كما أخذ بها ذو القرنين، ولكن السورة أيضا ترشدنا إلى ضرورة رد هذه الأسباب إلى مسببها، كما ذكر المؤمن الفقير لصاحب الجنتين: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾[الكهف: ٣٩]، وكما ذكر العبد الصالح لنبي الله موسى: ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾[الكهف:٨١]، وقوله :﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف:٨٢]. وكما ذكر الملك الصالح ذو القرنين بعد بناءه السد المنيع الشاهق: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف:٩٨]

وهكذا يتصل هذا المعنى ويرتبط بالقصة الأهم في هذه السورة، وهي قصة أصحاب الكهف – والتي سُميت السورة باسمها – حيث أن فتية الكهف أخذوا بالأسباب وفروا من الفتنة، ولم يرتضوا البقاء في قومهم المشركين خوفاً على دينهم، فئاووا إلى الكهف، واستعانوا بربهم حين دخلوه، ليسترهم ويحفظهم ويهيئ لهم عيشتهم في هذا المكان الضيق الخشن: ﴿ إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا

رَشَداً﴾[الكهف: ١٠]، كما أخذوا بالأسباب حين أحسوا بالجوع، فأرسلوا أحدهم إلى المدينة بما معهم من دراهم، وأوصوه أن يتخير لهم أزكى وأطيب طعاماً: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى المَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾[الكهف: ١٩]، كما أوصوه بالتحرز والتخفي في ذهابه وشرائه ثم إيابه إليهم، لئلا يظهر عليهم قومهم ويظفروا بهم فيعذبونهم أو يعيدونهم إلى ملة الشرك بعد إذ نجاهم الله منها: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾[الكهف: ٢٠].

إن سورة الكهف – عبر قصصها المتنوعة – تعلمنا ضرورة الأخذ بالأسباب، ولكن هذه السورة الكريمة تعلمنا مع ذلك ضرورة حُسن الاستعانة بمسبب الأسباب، مع الحذر من الافتتان بهذه الأسباب كالفتنة بالمال أو القوة أو العلم أو السلطان..

خط الترابط الثالث: رعاية الله ﷻ وقيوميته لأوليائه الذين تخلوا عن زينة الحياة الدنيا في سبيل دينهم.

- قال تعالى ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً﴾ [الكهف: ١٧].

- تستعرض لنا السورة مظاهر رعاية الله وقيوميته لهؤلاء الفتية، القليل عددهم.. المستضعفون في قومهم، ومن هذه المظاهر: تثبيت الله لهم، وربطه على قلوبهم، حين واجهوا قومهم وصدعوا بتوحيده سبحانه وتعالى ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾[الكهف: ١٤]، ومن مظاهر رعاية الله وقيوميته لهم: حفظه سبحانه وتعالى لهم من أشعة الشمس المباشرة، كي لا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي إذا طلعت الشمس تميل عن الكهف يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، كما جعل الله عز وجل أعينهم منفتحة لئلا تفسد وهم نيام هذا الزمن الطويل ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾، ومن مظاهر رعاية الله لهم: تقليبه لأبدانهم ذات اليمين وذات الشمال، كي لا تأكل الأرض بأجسادهم إذا ظلت ملتصقة بها، إنها ولاية الله وتأييده لعباده الذين تركوا زينة الحياة الدنيا من أجل دينهم، وفارقوا ديارهم، وتركوا أوطانهم في الله لشدة رغبتهم في عقيدتهم، وتمسكهم بتوحيدهم، وذلك هو العمل الذي جاءوا به ومن أجله غير الله عز وجل لهم نواميس الكون.

- وكما عرضت لنا سورة الكهف رعاية الله وقيوميته لأوليائه المستضعفين في نموذج ولاية الله لأصحاب الكهف، عرضت لنا السورة رعاية الله وقيوميته للحاكم الصالح ذو القرنين الذي مكَّن الله عز وجل له في الأرض، وشدَّد ملكه وأيدَّه بكل أسباب التمكين من القوة والجند، والسلاح وآلات الحرب، كما أيدَّه بالعلم النافع والمال الصالح، كما هيئ الله عز وجل له سبيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها، قال تعالى:﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾[الإسراء: ٨٤]..

- هذا الملك الصالح الذي طاف أنحاء الأرض لإقرار الحق، ونشر العدل، والقصاص من الظالمين،

ومواجهة المفسدين في الأرض، قام ذو القرنين بذلك دون طمع أو رغبة في دنيا، أو سعي لغنيمة أو أُجرة، إنما في سبيل ربه الذي أيدَّه ومكنه.

- وهكذا تتناسب – في سياق سورة الكهف– قصة الحاكم القوي ذو القرنين مع قصة الفتية المستضعفة أصحاب الكهف في رعاية الله وتأييده لأوليائه في طور الاستضعاف وفي طور التمكين، أوليائه المؤمنين الذين تحركوا وأخذوا بالأسباب التي أمرهم الله بها، متوكلين على ربهم الذي هيئ لهم هذه الأسباب، مستعينين به سبحانه وتعالى في تصريف كل أمر وتدبير كل شأن من شأنهم.

ومن ثم نُلخص أوجه التناسب بين القصص الأربع في السورة كالتالي:

- مناسبة قصة أصحاب الكهف مع قصة صاحب الجنتين في: توضيح فارق التعامل مع فتنة الحياة الدنيا وزينتها بين التخلي عنها من أجل دين الله، وبين السقوط فيها والاغترار بها.

- مناسبة قصة أصحاب الكهف مع قصة موسى والعبد الصالح، وتلك الأفعال التي قام بها هذا العبد الصالح هو: في التأكيد على إحاطة الله بكل شيء علماً، مع قصور علم البشر، ومن ثم ضرورة ترك علم الغيب لله علام الغيوب، الذي يدبر أمر عباده بحكمته ويهيئ لهم الخير برحمته.

- مناسبة قصة أصحاب الكهف مع قصة ذي القرنين في تأييد الله ومعيته لعباده في استضعافهم، وفي تمكينهم، بعدما أخذوا بالأسباب التي أمرهم بها سبحانه، وأحسنوا الاستعانة به في كل أمورهم.

- مناسبة قصة صاحب الجنتين مع قصة ذي القرنين في تقديم نموذجين متضادين في التعامل مع فتنة المال والقوة، نموذج سقط في هذه الفتن وأشرك بربه، ونموذج نجح بعون الله ورد النعمة للمنعم، وأدى شكرها كما أراد الله منه.

- ومع أوجه التناسب التي سبقت، نجد بعون الله وتوفيقه أن هناك وجه آخر للتناسب بين القصص الأربع كلها، مع مجيئها بهذا الترتيب في عرض السورة، وهذا الوجه هو:

- مفارقة المشركين والفرار بالدين (كما في قصة أصحاب الكهف) – التخلي عن زينة الحياة الدنيا وعدم

الافتتان بها (كما في قصة صاحب الجنتين) – اليقين في تدبير الله لأمر الغيب بحكمته ورحمته مما يورث الصبر على تصريفه للأحداث (كما في قصة موسى والعبد الصالح) – امتلاك أسباب القوة والتمكين مع حسن الاستعانة بالله لإقرار الحق في الأرض (كما في قصة ذي القرنين)، هذا والله أعلم..

ووجه التناسب هذا كشف لنا عن أهم متطلبات لإقرار دين الله في الأرض، والانتقال من طور الاستضعاف إلى طور التمكين، وهي أربعة كالتالي:

١- المفاصلة والهجرة في سبيل الله فراراً بالدين.[١]

٢- التخلي عن زينة الحياة الدنيا.

٣- اليقين في الله وتدبيره، والصبر على تصريفه للأحداث.

٤- السعي لتحصيل أسباب القوة والتمكين مع حسن الاستعانة بالله.

وهذه المتطلبات الأربع تأتي بعد الصدع بالحق والجهر بدعوة التوحيد، ثم مقابلتها بالتكذيب والعناد من قِبل الجاهلية المشركة..

كما تأتي هذه المراحل بعد تكوين قاعدة صلبة مؤمنة تعيش بالله ولله في كل جوانب حياتها.

- ونقف هنا لنتساءل: لو لم تأتي قصة ذو القرنين في سورة الكهف أو اقتصرت هذه السورة المكية على قصة أصحاب الكهف فحسب، كيف تكون النتيجة عند بعض المسلمين؟

الإجابة والله أعلم هي: سيظن أناس من هذه الأمة أن عليهم البقاء في كهف الاستضعاف دهراً طويلاً، دون بذل أي أسباب للخروج من مرحلة الاستضعاف، ودون السعي لتحصيل أسباب التمكين!

لذلك – والله أعلم – لم يُبقي الله عز وجل نبيه ﷺ في غار ثور – أثناء هجرته – زمناً طويلاً كأصحاب الكهف، لأن الله عز وجل سيؤتي نبيه ﷺ أسباب القوة ليقيم الحق والعدل في الأرض، ويطهرها من الكفر والشرك،

[١] وليس المقصود هنا ترك الأوطان أو الانفصال الجسدي عن المجتمع وإنما المقصود هجرة قلبية وعملية بترك أخلاق الجاهلية وكرهها والعمل على تغييرها بالطرق الشرعية.

ويواجه المفسدين في الأرض كما فعل ذو القرنين، ويعذب الله الظالمين بأيدي المؤمنين.

- وهكذا ترتبط سورة الكهف بالواقع الحركي لهذا الدين، وهكذا تتناسب قصصها الأربع معاً وتتصل لتواكب حركة الدعوة، وانتقال رسول الله ﷺ من طور الاستضعاف بالهجرة في سبيل الله إلى طور التمكين بتحصيل أسباب القوة، والجهاد في سبيل الله، وهذه أكبر الأسباب التي تُنال بها مغفرة الله ورحمته، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النحل: ١١٠].

** ومما سبق نجد أن الوحدة الموضوعية لسورة الكهف والله أعلم هي:

"رعاية الله لأوليائه المستمسكين بتوحيده، الملتجئين إلى كنفه، مع تدبيره سبحانه لكافة شئونهم برحمته وحكمته".

** كما أننا نجد أن الهدف العام لسورة الكهف والله أعلم هو:

" الأخذ بالأسباب التي هدانا الله إليها في كتابه القويم لإقامة دينه، مع حسن الاستعانة به سبحانه في كل الأمور".

<u>لفتة وإشارة في المنهج الحركي للقرآن</u>

- تأتي سورة الكهف في ختام تلك الباقة من السور التي تحدثت عن: تمام التوكل على الله لاستجلاب التأييد الإلهي اللازم للعصبة المؤمنة التي هداها الله إلى صراطه المستقيم، وهذه الباقة كان عنوان وحدتها الموضوعية: ﴿إياك نستعين﴾، وقد بدأت هذه الباقة سورها بسورة يونس، لتختم بهذه السورة الكريمة– سورة الكهف – التي نتأمل هنا بعون الله وتوفيقه أوجه الترابط والتناسب بينها وبين السور قبلها في نفس باقتها، كما ننظر بعون الله وتوفيقه إلى حكمة ترتيبها النهائي في هذا الموضع من كتاب الله، حيث تنفرد

سورة الكهف بأنها السورة التي ينتصف بها القرآن الكريم.

– ونجد بعون الله وتوفيقه أكثر من وجه للتناسب بين سورة الكهف وسور باقة (إياك نستعين) كما يلي:

أولاً: المناسبة مع سورة يونس: نجد أن كلاً من نبي الله يونس عليه السلام وفتية الكهف، قد غادروا قومهم بسبب كفر قومهم، وأن كلاً من يونس عليه السلام وفتية الكهف حينما قدَّر الله لهم العودة إلى قومهم أو مدينتهم وجدوا الحال قد تبدل، وأن الناس قد آمنت بدون وجودهم معهم، وفي ذلك تأكيد على أن أمر الإيمان والهداية بإرادة الله ومشيئته وحده، وأن على الداعية أن يؤدي واجبه كاملاً متوكلاً على ربه، غير أن فتية الكهف ليسوا رسلاً إلى قومهم عليهم أن يواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويحتملوا تكاليف هذه المواجهة، حتى يفصل الله بينهم وبين أقوامهم، ومن ثم فالمؤمنين كفتية الكهف أذن الله لهم بالفرار بدينهم، وعدم البقاء في وسط كافر يتعرضون فيه للفتنة في دينهم، أما الرسل لا يتحركون إلا بوحي خاص من الله لهم، لذلك أذن الله لعباده المؤمنين في كتابه الكريم بعدم البقاء في دار الكفر، أو التعرض للفتنة في الدين تحت ذريعة أنهم كانوا مستضعفين: قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ٩٧].

ثانياً: المناسبة مع سورة هود: هناك تناسب في المفاصلة التي قام بها نبي الله هود عليه السلام لقومه ومعبوداتهم الباطلة – كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾[هود: ٥٤ –٥٥] – مع المفاصلة والمفارقة التي قام بها فتية الكهف لقومهم ومعبوداتهم الباطلة: كما في قوله تعالى ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾[الكهف: ١٤– ١٥].

ثالثاً: المناسبة مع سورة يوسف: بعد درس التناسب مع "يونس" في أداء الداعية لواجبه كاملاً متوكلاً على ربه، وبعد درس التناسب مع "هود" في المفاصلة حول عقيدة التوحيد، يأتي التناسب مع "يوسف" في الانتقال

من طور الاستضعاف إلى طور التمكين ليُمكَّن له، غير أنه في سورة يوسف كان التحول متمثلاً في شخص واحد وهو يوسف عليه السلام الذي انتقل من السجن ليُمكَّن له في الأرض ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾[يوسف: ٥٦]، أما في سورة الكهف، كان التحول الذي عرضته لنا السورة من طور الاستضعاف متمثلاً في قصة فتية الكهف، إلى طور التمكين في الأرض متمثلاً في قصة ذي القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾[الكهف: ٨٤]، وقد مكَّن الله عز وجل لكلٍ من يوسف عليه السلام وذي القرنين، وأتاهما أسباب التمكين وأهمها العلم، فقام يوسف عليه السلام بتقديم حل علمي لمشكلة الجدب والقحط: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[يوسف: ٤٧]، كما قام ذو القرنين بتقديم حل علمي مبتكر لمشكلة السد بين يأجوج ومأجوج:﴿ آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾[الكهف: ٩٦].

رابعاً: المناسبة مع سورة الحجر: نجد أن كلاً من "الحجر" و"الكهف" عبارة عن أكنان داخل الجبال اتخذت للمأوى، غير أن" الحجر " كانت بُيُوتاً لقوم ثمود الذين أشركوا بالله وكذبوا رسله، اتخذوها لحفظهم وأمنهم من عذاب الله، فما أغنت عنهم من الله شيئاً لما جاء أمره سبحانه وتعالى بإهلاكهم: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الحجر: ٨٠– ٨٤]، بينما " الكهف" كان غاراً في جبل لاذ إليه فتية مؤمنون احتماءً بربهم، واعتزالاً لقومهم المشركين بالله، مخافة أن يفتنوهم في دينهم، فأيدهم الله عز وجل وحفظهم وسترهم وقام على أمرهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾[الكهف: ١٦]، فلم يعثر عليهم أحد كل هذه المدة الطويلة رغم قربهم من المدينة.

خامساً: المناسبة مع سور النحل والإسراء: جاء في آخر سورة النحل تأكيد أن معية الله وولايته للذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[النحل: ١٢٨]، ثم عرضت كلاً من سورتي "الإسراء والكهف" نماذج لمعية الله وولايته وقيوميته لأوليائه الذين ساروا على طريقه وتمسكوا بتوحيده:

نموذج المعية والتأييد لرسول الله ﷺ في سورة الإسراء، ونموذج المعية والتأييد لفتية الكهف، والعبد الصالح وذي القرنين في سورة الكهف والله أعلم.

أما بمناسبة مجيء سورة الكهف في منتصف سور القرآن بين سورتي الفاتحة والناس، نجد – والله أعلم بمراده وحكمته – أن قوله تعالى: ﴿إياك نستعين﴾ في سورة الفاتحة يأتي في منتصف السورة– إذا لم تعتبر البسملة آية فيها كما في قول كثير من العلماء– ومن ثم فإن سورة الكهف والتي تختم باقة "الاستعانة والتوكل" والتي بدأت بسورة يونس، تأتي سورة الكهف في منتصف المصحف، لتتناسق مع قوله تعالى ﴿إياك نستعين﴾ الذي جاء في منتصف سورة الفاتحة والتي هي بمثابة ملخص لسور القرآن، لينتصف كتاب الله حول ﴿إياك نستعين﴾ كما انتصفت الفاتحة حول ﴿إياك نستعين﴾ .

** وفي ختام مقدمة سورة الكهف نقول إن رسالة هذه السورة الكريمة للعصبة المؤمنة الساعية لإقرار توحيد الله في الأرض هي: أيها المؤمنون اسلكوا الطريق الذي رسمه لكم القرآن.. واتبعوا الأسباب التي أمركم الله بها في كتابه.. واستعينوا بالله في كل أمركم، واتركوا الغيب لله يدبر الأمر بحكمته وفق علمه الشامل الذي يقصُر عنكم إدراكه.. ثم اصبروا ولا تتعجلوا النتائج.. واستبشروا فإن العاقبة بإذن الله لكم.

تمت بحمد الله وتوفيقه مقدمة سورة الكهف،

العرض التفصيلي لسورة الكهف

سنتناول بعون الله وتوفيقه عرض سورة الكهف في المقاطع التالية:

- المقطع الأول (من الآية ١ : الآية ٢٧) قيام المؤمنين بواجبهم في حال الاستضعاف يستجلب رعاية الله لهم رعاية كاملة.
- المقطع الثاني (من الآية ٢٨ : الآية ٥٩) حقيقة الحياة الدنيا وفتنتها وكيفية مواجهتها.
- المقطع الثالث (من الآية ٦٠ : الآية ٨٢) الصبر على تحصيل العلم، والتيقن بتدبير الله للأمور بحكمته ورحمته وفق علمه الشامل.
- المقطع الرابع (من الآية ٨٣ : الآية ١١٠) مهمة المؤمنين في طور التمكين هي إقرار الحق بسلطان الله.

- مع عرض مقاصد القرآن التالية بإذن الله:
  - مقصد معرفة الله: اسم الله (القيوم).
  - مقصد الإعداد لليوم الآخر: " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ".
  - مقصد تزكية النفس: " العائشون بالله والعلاقة بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله".
- مع عرض النموذج التطبيقي: ملامح من هجرة الرسول ﷺ، وصلح الحديبية، وفتح مكة.

فإلى التفصيل بإذن الله..

المقطع الأول (من الآية ١: الآية ٣٧) قيام المؤمنين بواجبهم في حال الاستضعاف يستجلب رعاية الله لهم رعاية كاملة

- سنتناول عرض هذا المقطع بعون الله وتوفيقه في العناصر التالية:

أولاً: القرآن هو العلم النافع القيم وواجبنا هو فهمه وتعلمه.

ثانياً: واجب المؤمنين في حال الاستضعاف: صدع واستقامة.. مفاصلة وهجرة.

ثالثاً: قيمة الحفنة المؤمنة في ميزان الله.

- مع عرض مقصد معرفة الله: اسم الله (القيوم).

تقدمة للمقطع الأول:

تبدأ سورة الكهف بحمد الله على إنزاله كتابه العظيم على رسوله الكريم ﷺ، وبيان وصف هذا الكتاب الكامل القيم المستقيم، الذي يحتوي على كل علم نافع قيم يحتاج إليه العباد في المعاش والمعاد، من اشتماله على التوحيد، وإخباره بالغيوب، وتزكيته للنفوس، وتبشيره للمؤمنين، وإنذاره للمشركين.

ثم تعرض لنا السورة في مقطعها الأول قصة أصحاب الكهف من غيب الماضي وما فيها من آيات عجيبة، قصة تعرض لنا حكاية موجزة لحفنة قليلة من فتية مؤمنين، لم يتجاوز عددهم العشرة، ولكن القرآن خلَّد ذكرهم، حيث بيَّنت لنا الآيات أن كل ما فعله هؤلاء الفتية هو استقامتهم على توحيد الله والتمسك بعبادته وحده دون سواه، مع قيامهم بالصدع بهذا الحق في وجه قومهم المشركين، ثم عزمهم على مفاصلة قومهم ومفارقتهم، فتركوا ديارهم التي كانوا يتنعمون فيها بالعيش الرغيد في أواسط الملوك والأمراء، والتجأوا إلى حمى ربهم وكنفه فراراً بدينهم واعتصاماً بربهم، فأواهم الله في كهفٍ في جبل، وأسدل عليهم ستره وحفظه، ورزقهم أمنه وبره، ورعاهم سبحانه وقام على أمرهم، فحفظ دينهم وأبدانهم، وقدَّر لهم بعلمه للغيب نومة طويلة لعقود مديدة، ولما حان في علمه بعثهم، أيقظهم وأعثر الناس عليهم ليعلموا أن وعده حق، كما وأن الساعة حق لا ريب فيها..

أولاً: القرآن هو العلم النافع القيم وواجبنا هو فهمه وتعلمه

- قال تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً (١) قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾[الكهف: ١- ٢].

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: " الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته، التي هي كلها صفات كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وأجلّ نعمه على الإطلاق هي إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله محمد ﷺ، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين نفي العوج وإثبات الاستقامة، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجل الإخبارات، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تزكي النفوس، وتطهرها وتنهيها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط والإخلاص والعبودية لله رب العالمين وحده لا شريك له، وحقيق بكتاب موصوف بما ذُكِر، أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عباده به "[1].

إن هذا الكتاب القيم الذي لا عوج فيه ولا اختلال: ﴿ قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الزمر: ٢٨]، تقوم عليه وتستقم مصالح العباد في معاشهم ومعادهم: ﴿ إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء: ٩]، فهو يأخذ بأيدي العباد ليهديهم إلى صراط الله المستقيم: ﴿ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأحقاف: ٣٠]، فمن سار على هديه واتبع منهجه لن ينحرف أو يميل عن صراط الله المستقيم في الدنيا، ولن يزيغ أو يختل عن صراط الله المستقيم في الآخرة، حتى يصل إلى جنة الفردوس لتكون له نزلاً خالداً فيها لا يبغي عنها حولاً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[الكهف: ١٠٧- ١٠٨]، فهذا الكتاب بشير للمؤمنين العاملين به، ونذير للكافرين المعرضين عنه.

وحقيق بكتاب مثل هذا أن يكون أنفع كتاب عرفته البشرية، وأنفع العلوم في الأرض على الإطلاق، فالعلم النافع هو: العلم الذي يدل على الخير، ويهدي إلى الرشد والقرآن يدل على الخير، ويهدي إلى الرشد قال تعالى ﴿

(١) تيسير الكريم الرحمن في شرح كلام المنان، الشيخ السعدي، ص ٥٠٣.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾[النحل: ٣٠]، وقال تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾[الجن: ١-٢]، والعلم النافع هو الذي يصرفُ الناس عن الشر، ويحذرهم منه ليبتعدوا عنه، قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾[طه: ١١٣]، لعل الناس تتقي أسباب الوعيد من كل ما يغضب الله، فيبتعدوا عنه.

إن العلم النافع هو ما أنزله الله من الكتاب، فالعلم الحق هو ما جاء من عند الله، انظر لقول اليهود عند نزول قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء: ٨٥]، قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً " [(١)].

- ولكن ما هو العلم الذي نريده من القرآن؟

يجيب الإمام ابن القيم رحمه الله عن هذا السؤال في الأبيات التالية:

والعلم أقسام ثلاث مالها *** من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله *** وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه *** وجزاؤه يوم المعاد التالي
والكل في القرآن والسنن التي *** جاءت عن المبعوث بالقرآن[٢]

إنه العلم بالله تعالى وهو أشرف العلوم، وهو أول مقاصد القرآن في التعرف على الله، بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها، كما هو العلم بالأوامر والنواهي التي كلفنا الله بها، ولا سبيل إلى امتثالها أو اجتنابها إلا بمعرفتها أولاً، لذلك فإحدى مقاصد القرآن هو تعريف الخلق بدين الله وصراطه المستقيم، كما اشتمل القرآن على أحوال اليوم الآخر وما يكون بعد الموت من الثواب والعقاب، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، والإعداد لليوم الآخر هو أيضاً إحدى مقاصد القرآن الكريم.

أما موضوع القرآن الأساسي فهو "إقرار التوحيد وإنكار الشرك"، والقرآن قد برهن على ذلك بالأدلة الساطعة

(١) سبق تخريجه.
[٢] القصيدة النونية لابن القيم، ص ١٨٩.

والحجج الدامغة..

ولا سبيل لتعلم هذه العلوم ونيل هذه المقاصد إلا بدراسة القرآن، دراسة الطالب لكتابه، دراسة واعية بالكتابة والقلم، فنزلت أول آيات القرآن تدعو للتعلم: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق: ١-٥]، وقد حثت الكثير من الآيات على تعلم القرآن منها قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ١٧] أي يتمسكون به علماً وعملاً، فيتعلمون ما فيه من العلوم التي هي أشرف العلوم، كما حذرت الكثير من الآيات عن إهمال تعلم القرآن، والتنبيه على السؤال عن ذلك يوم القيامة: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل: ٨٤].

وفي الحديث الشريف: " خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه "، وقد حث الكثير من الصحابة والتابعين على ضرورة تعلم القرآن، قال ابن مسعود ﷺ: " إذا أردتم العلم فانثروا هذا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين "[١]، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: " عليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه أبناءكم فإنكم عنه تسألون، وبه تجزون، وكفى به واعظاً لمن عقل" [٢]، وقال مسروق ابن الأجدع – من كبار تابعي الكوفة وأجمعهم لعلم الصحابة –: " ما نسأل أصحاب محمد ﷺ عن شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن قصر علمنا عنه "[٣].

- **والسؤال الآن: لماذا هذا التذكير بأهمية تعلم القرآن في بداية العرض التفصيلي لسورة الكهف على وجه الخصوص؟**

والإجابة بعون الله وتوفيقه لهذه الأسباب:

السبب الأول: جاء في السورة الحث على تعلم العلم، وذلك في سعي كليم الرحمن نبي الله موسى عليه السلام لتعلم العلم، وتصميمه على بلوغ مكان تحصيله مهما تكن المشقة، ومهما يكن الزمن الذي ينفقه في الوصول: قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾[الكهف: ٦٠]، كما جاء

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٢٦/٦، المعجم الكبير للطبراني ١٣٦/٩.
(٢) كنز العمال ٢٣، مشكل الآثار للطحاوي ١٧١/١.
(٣) شعب الإيمان للبيهقي ٢٣١/٥.

في السورة أيضا بيان أن العلم هو أحد أهم أسباب التمكين اللازم تحصيلها وذلك في قصة ذي القرنين الحاكم الصالح الذي أتاه الله من كل شيء سبباً: قال تعالى ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾[الكهف: ٨٤- ٨٥]، قال ابن كثير وغيره: " آتيناه من كل شيء سبباً " أي: علماً، فأعطاه الله علماً ليسلك الطرق التي يطوف بها الأرض، وأعطاه علماً ليفقه به كلام القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً، وأعطاه الله علماً ليقيم سداً منيعاً شاهقاً ليمنع يأجوج ومأجوج عن الإفساد في الأرض..

ومن ثم فإن هذا الحث البارز في السورة على تعلم العلم، جعلنا نتوجه إلى التذكير بخير العلوم وأشرفها وهو: القرآن الكريم، وخاصة أن السورة بعد كل قصة من قصصها تدعو إلى فهم القرآن وتعلمه، قال تعالى بعد قصة أصحاب الكهف: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾[الكهف: ٢٧] يقول الشيخ السعدي في تفسير هذه الآية: " أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيها وفهمها، وتصديق أخباره، وامتثال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها "[(١)].

وقال تعالى بعد قصة صاحب الجنتين: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[الكهف: ٥٤]، يقول ابن كثير في تفسيرها" يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى "[(٢)].

ورغم أن الحق في القرآن بهذا الوضوح إلا أن أكثر الناس تجادل بالباطل بغير علم، ولا تريد أن تفقه القرآن أو تتعلمه، وهؤلاء أحجب الله عنهم فهم كتابه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾[الكهف:٥٧].. وهؤلاء المعرضين عن فهم كتاب الله واتباعه جاء ذكرهم في ختام قصة موسى عليه السلام، وفي ختام قصة ذي القرنين، وهم في مشهد يوم القيامة لا يستطيعون الإعراض عن جهنم، حيث نُزع الغطاء عن عيونهم نزعاً، فرأوا عاقبة الإعراض والعمى عن آياته جزاءً وفاقاً: قال تعالى ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ

(١) تيسير الكريم الرحمن في شرح كلام المنان، الشيخ السعدي، ص ٥١٠.
(٢) عمدة التفسير، مختصر تفسير ابن كثير، ٤٨١/٢.

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾[الكهف: ١٠٠- ١٠١].

ومما سبق.. بعد هذا الحث البارز على تعلم العلم عامة كما جاء في سورة الكهف، وهذا الحث البارز فيها على فهم كتاب الله وتعلمه خاصة، كان التذكير بأهمية تعلم كتاب الله وفهمه ذا صلة بموضوع السورة والله أعلم.

- السبب الثاني: إخبار السورة عن الغيوب المتقدمة والمتأخرة في صورة قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى مع العبد الصالح، وقصة ذي القرنين، يشي بدلالات عميقة ونبوءات للفئة المؤمنة الأولى في مستقبلها القريب، وكان هذا هو الدافع الأكبر لتعلم ودراسة هذه السورة الكريمة بعون الله وتوفيقه، لنصل إلى استنباط هذه الدلالات بإذن الله، ومن ثم كانت هذه الوقفة في بداية السورة للحث على ضرورة تعلم كتاب الله وفهمه.

إننا نهدف في تدبرنا لكتاب الله استنباط منهج القرآن القويم لإقرار دين الله على الأرض، فكان حري بنا أن نتعلم قصص هذه السورة الكريمة في ضوء دراسة واقع الدعوة الحركي في مكة، حيث كانت العصبة المؤمنة مستضعفة، ومن ثم قمنا بدراسة ملابسات السورة مع الربط بين قصصها وجو نزولها، لنستشرف فيها بشرى القرآن المكي للعصبة المؤمنة الأولى والتي تم تمهيدها من قبل الله بما ستمر به في طور التمكين، وما هي الخطوات –ابتداءاً– المطلوبة منها لتخرج من ضيق الاستضعاف إلى سعة حركة الفتوحات في الأرض لإقرار الحق فيها، مع ربط ذلك كله بموضع السورة النهائي في ترتيب المصحف بعد سورة الإسراء، تلك السورة التي جاءت في شكل نبوءة تبشر بعودة النبي ﷺ ظافراً على أهل مكة إن هم أخرجوه مستضعفاً من بين أظهرهم، قال تعالى ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء: ٧٦]، وقوله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[الإسراء: ٨٠- ٨١].

- السبب الثالث والأخير :الذي دفعنا للتذكير بضرورة تعلم القرآن عامة، وتعلم سورة الكهف خاصة، هو ظلم كثير من الناس – إلا من رحم ربي – لسورة الكهف على وجه الخصوص، حيث يحرص الكثير على سرعة قراءة سورة الكهف في زمن لا يتجاوز عشرة دقائق أو خمس عشرة دقيقة، لنيل أجر الحديث

الذي أورده الحاكم في المستدرك عن فضل قراءة سورة الكهف في يوم الجمعة، هذا الحديث ومع الاختلاف بين ضعفه وحسنه، إلا أن هذا الفضل لا يعني سرعة قراءتها، والتي لا يُرتجى من وراءها أي تدبر أو فهم للسورة، وهذه هي علاقة غالبية الناس – إلا من رحم ربي – مع سورة الكهف خاصة، كما هو الحال مع القرآن كله من الإعراض عن فهمه وتعلمه، والاكتفاء بالتعامل الشكلي معه بقصد جمع الحسنات بتلاوته وحفظه، مع الانشغال والانبهار بالعلوم الدنيوية، والتبحر في العلوم الشرعية الأخرى، وإهمال أنفع العلوم وأشرفها: القرآن الكريم !

لهذه الأسباب كانت هذه الوقفة الهامة بعون الله وتوفيقه للحث على طلب العلم، وتحصيل أشرف العلوم وأنفعها للبشرية كلها.

ثانياً: واجب المؤمنين في حال الاستضعاف: صدع واستقامة.. مفاصلة وهجرة

- قال تعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً (١٤) هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾[الكهف: ١٣– ١٥].

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴿ ..﴾وزدناهم هدى ﴾ بإلهامهم كيف يدبرون أمرهم. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ فإذا هي ثابتة راسخة، مطمئنة إلى الحق الذي عرفت. معتزة بالإيمان الذي اختارت ﴿إِذْ قَامُوا﴾ والقيام حركة تدل على العزم والثبات. ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فهو رب هذا الكون كله ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً﴾.. فهو واحد بلا شريك. ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾.. لقد تجاوزنا الحق وحِدنا عن الصواب.

ثم يلتفتون إلى ما عليه قومهم فيستنكرونه، ويستنكرون المنهج الذي يسلكونه في تكوين العقيدة:

﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ؟﴾.. فهذا هو طريق الاعتقاد: أن يكون

للإنسان دليل قوي يستند إليه، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول وإلا فهو الكذب الشنيع، لأنه الكذب على الله:﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً؟ ﴾..

وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً، لا تردد فيه ولا تلعثم.. لقد تبين الطريقان، واختلف المنهجان، فلا سبيل إلى الالتقاء، ولا للمشاركة في الحياة، ولابد من الفرار بالعقيدة، إنهم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويداوروهم، ويعبدوا ما يعبدون الآلهة على سبيل التُقية ويخفوا عبادتهم لله. والأرجح أن أمرهم قد كُشف. فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقا﴾[الكهف: ١٦].

وهنا ينكشف العجيب في شأن القلوب المؤمنة؛ فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم. هؤلاء يسترحمون رحمة الله. ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة. " ينشر لكم ربكم من رحمته"[١].

- إن الآيات لم تنسب لهؤلاء الفتية كلاماً كثيراً، ولكن كلماتهم القليلة تُنبأ بمعانٍ جليلة: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾.. إنه الاعتزاز بعقيدة التوحيد، والاستقامة عليها مهما كان الثمن، توحيد الربوبية مبنياً عليه توحيد الإلهية" ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.. إنها المواجهة بالحق بين الفتية وقومهم، والصدع بمفاصلة القوم المشركين وإعلان الخصومة معهم.

ولكن أين المصلحة في ذلك؟ أليسوا قلة دون العشرة؟ أليسوا مستضعفين وحاكم المدينة يتوعدهم ليبطش بهم؟ لماذا لم يختاروا المداورة والخداع ومشاركة الناس في بعض عاداتهم وتقاليدهم؟ لماذا لم يحاولوا التكيف مع الوضع الراهن المتغلب؟

لأن منهج الله لمن أراد أن يتحرك بهذا الدين، والتي جاءت هذه السورة لتُعلِّمنا إياه هو:

(١) تفسير الشعراوي للقرآن الكريم، ٢٢٦٢/٣.

أن المؤمنين في حال الاستضعاف ليس عليهم إلا الاستقامة على التوحيد، ونبذ عبادة الآلهة المدعاة، واجتناب أي مظاهر للخضوع لأرباب متفرقة ما أنزل الله بها من سلطان، غير مطلوب منهم الالتقاء مع الجاهلية في منتصف الطريق. لأن أول خطوة في الطريق هي تميز منهج التوحيد عن منهج الشرك: تصوراً وعملاً.

وهذا ما أعلنه هود عليه السلام وهو يقف وحده، ولم يؤمن معه إلا قليل، في مواجهة أعتى أهل الأرض في زمانهم: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٤- ٥٦]..

وهذا ما أعلنه يوسف عليه السلام دون مداورة وهو في السجن مستضعف: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[يوسف: ٣٧-٣٨]..

وهذا ما أعلنه رسول الله ﷺ وهو في مكة مستضعف لما أمره ربه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[الحجر: ٩٤]، فقال لقومه "كلمة واحدة تقولوها تدين لكم بها العرب والعجم، تقولون: **لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه**"(١).

لذلك فإن التمسك بهذه العقيدة دون تنازل أو مساومة.. والصدع بكل مقتضياتها دون مداهنة أو مداورة.. والمفاصلة حولها دون اختلاط أو مشاركة الجاهلية في أوضاعها وتقاليدها.. هو واجب المؤمنين في حال الاستضعاف بإيجاز واختصار..

وبعد أداءهم لهذا الواجب، وفي حالة عدم استجابة الجاهلية المشركة لدعوتهم بل مقابلتها بالتكذيب والعناد.. ثم بالإيذاء والتنكيل، والفتنة في الدين في حال ظهورهم على المؤمنين، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾[الكهف: ٢٠] إذن البقاء يعني: الفتنة في الدين، والردة إلى ملة الشرك.. وهذا ما يخشاه هؤلاء الفتية لأنه يعني خسارة الدنيا والآخرة.. فقرر الفتية مغادرة المدينة،

(١) سيرة ابن هشام ٤١٧/١.

ومفارقة القصور [١]، والفرار إلى كهف في جبل للتخفي فيه.. تحرك الفتية وأخذوا بالسبب المتاح أمامهم، ولو يملكوا غير ذلك لفعلوا، فلا سبيل أمامهم إلا هذا الكهف، التجأوا إليه متيقنين أن الله عز وجل هو حافظهم ومتوليهم، فتبرؤا من حولهم وقوتهم واحتموا بحول الله وقوته: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾[الكهف:١٦].

ثالثاً: قيمة الحفنة المؤمنة في ميزان الله

- قال تعالى ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُّرْشِداً﴾[الكهف:١٧].

أوى الفتية الخائفون إلى كهف موحش مظلم، تركوا سعة القصور الرغيدة، والتجأوا إلى كهف ضيق خشن في سبيل دينهم، فهل يتخلى عنهم ربهم؟ والله أبداً حاشه سبحانه، فمع أول خطواتهم داخل الكهف لهجت ألسنتهم وقلوبهم: ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[الكهف: ١٠].

ففي هذه اللحظة أسكب الله عز وجل عليهم رحمته، وأنزل عليهم سكينته، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب تنتشر فيه الرحمات، والحدود الضيقة لتنزاح، والجدران الصلدة لترق، والوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والراحة والاطمئنان [٢]..

وقد ضرب الله عليم النُعاس أمنةً منه ورضوانا.. فإذا بالمشهد العجيب: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾..

آية خاصة بهم: الشمس " تزاور" لفظ يُلقي ظل الإرادة في حركة الشمس كأنها متعمدة، مشهد عجيب في شروق الشمس وغروبها كل يوم على هذا الكهف، حيث تميل عن الكهف يميناً عند الشروق، وعند الغروب تميل عنه شمالاً، فلا تنالهم بأشعتها المباشرة ولا تتعرض لهم بحرها فتفسد أبدانهم، فقط يقترب منهم ضوئها،

(١) ذكر غير واحد من المفسرين أن هؤلاء الفتية أولاد ملوك، كما أن طليهم بأذكى طعام كما جرت عادة الأغنياء تناولها، دليلاً على كونهم كانوا من الأثرياء.
(٢) تفسير الشعراوي للقرآن الكريم، ٢٢٦٢/٣.

إنها آية حانية من آيات الله، أن تسخر نواميس الكون في خدمة حفنة مؤمنة مستمسكة بتوحيد ربها، أُخرجت من ديارها بغير حق إلا أن تقول ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً..

فما هي قيمة هذه الحفنة المؤمنة في ميزان الله ؟

إن وجود حفنة مؤمنة في الأرض شيء عظيم في ميزان الله تعالى.. شيء يستحق منه سبحانه أن يكلأ هذه الحفنة ويرعاها رعاية كاملة حتى تسلم وتنجو، إن هذه الحفنة المؤمنة المستمسكة بتوحيد ربها، والتي تواجه الجاهلية المشركة، وتعاني الغربة والوحشة في مواجهتها، كما تعاني الأذى والمطاردة.. إن هذه الحفنة المؤمنة ينبغي أن توقن أن الله عز وجل لن يضيعها، ولن يُسلمها لعدوها، لابد أن تثق أن وليها هو الله وحده، وهو سبحانه لا يترك أولياءه إلى أعداءه إلا فترة الإعداد والابتلاء، وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها ويصنع بها في الأرض ما يشاء.

إنه لا ينبغي لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالربوبية، وخلع الأنداد التي تعبد من دون الله، كما أنه لا ينبغي له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية، وفي الحقيقة القوى ليست متكافئة ولا متقاربة.. ولكن المؤمن الداعي إلى الله مادام يأخذ بالأسباب التي أمره الله بها، ويسير على نهجه الذي هداه إليه في كتابه الكريم، وما دام يستند إلى قوة الله متبرأً من حوله وقوته، مستعيناً بالناصر المعين، لابد أن يتيقن هذا المؤمن الداعي إلى أن الله عز وجل سيقوم على أمره ويحفظه ويتولاه في فترة استضعافه، وسيجعل له مخرجاً وفرجاً منها، وسيهيئ له أسباب التمكين والغلبة ويؤيده بسلطانه القاهر على عدوه، فالله عز وجل الولي القدير لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء، والله يملك أن يُسخر لأوليائه بعض القوى الكونية – حينما يشاء وكيفما يشاء – وأيسر هذه القوى تدمر الجاهلية من حيث لا تحتسب.

فلتسعى إذن الحفنة المؤمنة المستضعفة للخروج من ربقة الاستضعاف، ولا تستسلم لمحاولات الجاهلية المشركة في فتنتها عن عقيدتها، بحجة الضعف والعجز، فالله عز وجل لا يحب العبد العاجز الذي يتمنى على الله الأماني!.

فلتسعى ومعها منهج الله القويم يهديها بإذن الله إلى المخرج وإلى سواء السبيل ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي

السَّبِيلَ ﴾[الأحزاب: ٤]، ولكن عليها وهي تسعى أن تعلم أنها تسعى بتسيير الله، وتفكر بتوفيق الله، وتتحرك بتدبير الله الذي يقوم به وحده كل شيء في هذا الوجود..

مقصد معرفة الله: اسم الله (القيوم)

- قال تعالى ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[الكهف: ١٨].

قال ابن كثير " ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم، لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، لذلك يحسبهم الرائي أيقاظاً وهم رقود، وقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض"[1].

لقد قام الله عز وجل بأمر هؤلاء الفتية وهم رقود في نومتهم الطويلة، فقلبهم سبحانه على جنوبهم، يميناً وشمالاً، يتقلبون ولا يستيقظون، وهم في نومتهم هذه لا يملكون حفظ أجسادهم طيلة هذه القرون، والأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها لفترات طويلة، فمن الذي قام بأمر تقليبهم وحفظ أجسادهم؟ إنه الله عز وجل القيوم الذي حفظ دينهم من الفتنة، وحفظ أجسادهم من البلى.

- ولكن ما هو معنى اسم الله القيوم؟

القيَّم في اللغة هو: السيد المدبر للأمور، سائس الأمور، والقيَّوم هي صيغة مبالغة من القائم بالأمر، تفيد المبالغة في تسيير الأمور وتنظيمها.

القيوم اصطلاحاً هو: " القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، يقوم به كل موجود".. وقد جاء اسم الله القيوم في القرآن الكريم في أكثر من موضع منها آية الكرسي في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، إذن القيوم هو: القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره: فما من عبد على الإطلاق قائم بذاته، فالعباد مفتقرون إلى الله عز وجل في كل حركة وفي كل سكون، يحتاجون إمداد الله عز وجل لهم في كل نفس وفي كل طرفة عين، لكن الله

(١) عمدة التفسير، مختصر تفسير ابن كثير، ٤٦٨/٢.

سبحانه وتعالى قائم بذاته، غنى عن خلقه.

ويقوم به كل موجود: فكل شيء موجود في الكون قائم بالله، كل حركة وكل نأمة[1]، كل حبة في جنبات الأرض، وكل حشرة وكل زاحفة تلج في الأرض تتحرك بالله، كل هامة وكل طير يطير في السماء يطير بالله، قال تعالى ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[الملك: ١٩]، كل سحابة تبسط في السماء، وكل نقطة مطر تنزل من السماء تنزل بالله، قال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[الروم: ٤٨].

كل نفس تنام، وكل روح من أرواح الخلائق تُقبض في نومها تقبض بالله، وكل روح تُرد إلى جسدها تُرد بالله، قال تعالى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزمر:٤٢]..

وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: " الحمد لله الذي عافاني في جسدي، وَرَدّ على روحي، وأذن لي بذكره"[(٢)].

إن كل إنسان بل كل مخلوق لا يدري ماذا يحدث له بعد ساعة واحدة، ولا بعد لحظة واحدة، فإن سجف[3] الغيب مُسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة، وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المُسدل، وعقله مهما علم قاصر كليل:﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام :٥٩].

إن كل الخلائق مفتقرة إلى إمداد الله عز وجل، الذي عنده خزائن كل شيء: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر: ٢١]..

---

[1] من النوم
(٢) رواه الترمذي ٤٧٣/٥.
[3] حجاب

إن كل خلية في جسم الإنسان تؤدي عملها في كل لحظة بإذن الله القيوم..

إن الشمس لم تتحرك لتميل عن الكهف ذات اليمين عند طلوعها، أو تميل ذات الشمال عند غروبها، إلا أن الله عز وجل أذن لها بذلك.

ولقد كان أصحاب الكهف في نومهم جسوماً هامدة، والذي حرَّك أجسادهم وقلبها من جنب إلى جنب هو الله عز وجل، الذي يقوم به ويتحرك، أو يسكن ويخمد كل شيء في السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾[الروم: ٢٥].

كما أن عدم انطباق أعين هؤلاء الفتية حتى لا تبلى كان بالله، الذي جعل على هيئتهم وهم نائمين مهابة وذعر لمن ينظر إليهم حتى لا يقترب منهم أحد: ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾[الكهف: ١٨].

كل هذه الأفعال، ومظاهر الرعاية من الله عز وجل الذي يقوم به كل موجود عامة، ولكن المؤمنين لهم رعاية ومعاملة خاصة ورعاية كاملة، انظر كيف مضت عليهم رقدتهم لهذه السنين الطويلة، مضت عليهم كمن رقد يوماً أو بعض يوم لطفاً من الله ورحمة: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[الكهف: ١٩].

وهكذا تنقضي مدة أي: "كهف" يدخله المؤمن في سبيل الله تمسكاً بعقيدته، تنقضي بلطف الله ورحمته كأنها وقتاً يسيراً: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ﴾[يوسف: ١٠٠].

آثار اسم الله "القيوم" في حياة المؤمن

لا بد أن يحيا المؤمن وقلبه منقطع عن الخلق، لأنه متيقن أن كل شيء قائم بالله، وأن كل الخلائق لا تملك نفعه أو ضره إلا بإذن الله، لذلك على المؤمن أن ينشغل قلبه بالله، وألا يستعين إلا به سبحانه، في كل ما يهُمّ به وكل ما يتوجه إليه، قال تعالى ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[الكهف: ٢٣- ٢٤]..

وهذا الخطاب إن كان خاصاً وموجهاً لرسول الله ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، وقد نهى الله أن يقول العبد: إني فاعل ذلك غداً، لأن الغد في غيب الله، والعبد لا يدري هل سيفعل ذلك أم لا؟ هل سيكون أم لا؟

فتقديم العبد للمشيئة دليلاً على استعانته بالله، وتيقنه أن الأمور تجري وتدبر بيد الله عز وجل وحده، القائم على كل شيء، ولما كان العبد بشراً، فقد يسهو عن ذكر المشيئة، أمر الله أن يستثني بعد ذلك إذا ذكر: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي يقول العبد: " إلا أن يشاء الله "، ولما كان العبد مفتقراً إلى الله، محتاجاً إلى عونه وتوفيقه للسداد في أموره، وعدم الخطأ في أقواله وأفعاله، أمره الله أن يقول: ﴿عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق إلى الرشد، وهكذا يتم وصل قلب العبد بربه دوماً، فيعيش بالله في كل شيء، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في الأخذ بالأسباب التي هداه الله إليها، ويسَّرها له، وحريٌ بعبد يكون هذا حاله، أن يوفق في سعيه، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يُسَّدد في جميع أموره بإذن الله.

ومن الأدعية التي يُعلِّمُنا رسول الله ﷺ إياها قوله: " ياحي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"(١).

إذن من آثار اسم الله " القيوم" في حياة المؤمن، أن ينقطع قلب العبد المؤمن عن الخلق، ويلجأ إلى الله مستعيناً به في كل أموره، فليس للمؤمن ملجأ يلجأ إليه إلا ربه: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾.

- وسنقوم بعون الله وتوفيقه بتوضيح حقيقة العلاقة بين الأخذ بالأسباب، وبين الاستعانة بالله، في عرض مقصد:"تزكية النفس" مع تناول المقطع الثالث بإذن الله.

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٤٧/٦)، وصححه الألباني.

المقطع الثاني(من الآية ٢٨: الآية ٥٩) حقيقة الحياة الدنيا وفتنها وكيفية مواجهتها.

- سنتناول عرض هذا المقطع بعون الله وتوفيقه في العناصر التالية:

أولاً: الصبر على صحبة الأخيار الزاهدين في زينة الحياة الدنيا.

ثانياً: حوار بين كافر مغرور بزينة الحياة ومؤمن فقير معتز بالله.

ثالثاً: هذه هي حقيقة الحياة الدنيا: زينة.. وفتنة.

- مع عرض مقصد الإعداد لليوم الآخر: " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".

تقدمة للمقطع الثاني

عرض لنا المقطع الأول من السورة دور الصحبة الصالحة المعينة على التوحيد، وذلك عندما جمع رباط العقيدة فتية مؤمنون، فعزموا على الفرار سوياً بدينهم من الفتنة، متغلبين على زينة الحياة الدنيا، التي كانوا يعيشون فيها.

ثم بدأ المقطع الثاني من السورة بالحث على الصبر على صحبة الأخيار الزاهدين في زينة الحياة الدنيا، الذين اتجهت قلوبهم إلى الله خالصة له، متجردة من أي حظ من حظوظ الدنيا.

ثم يقوم المقطع الثاني بعرض حوار بين كافر مغرور بزينة الحياة، أتاه الله ثروة وخدماً وأنصاراً، فذهلته الثروة، وتبطر بالنعمة، واغتر بالأنصار والقوة، وبين رجل مؤمن فقير معتز بالله، ذاكراً لربه شاكراً لأنعمه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، ثم ينتهي هذا الحوار بدمار ثروة الكافر المغرور، وبوار جنتيه، وتخلى عنه أنصاره، فإذا به يُقلب كفيه أسفاً على ماله الضائع، وندماً على إشراكه بالله، وهنا يُلخص لنا هذا المقطع من السورة حقيقة الحياة الدنيا أنها زينة فانية، وأنها فتنة تخدع اللاهثين ورائها، ليتحقق بها ابتلاء الله لعباده، وينجو من هذه الفتنة المؤمنون الذين اختاروا القيمة الباقية، واجتهدوا في التزود بالباقيات الصالحات، لينتفعوا بنتاجها وثمارها يوم الجزاء .

وإلى التفصيل بإذن الله . .

أولاً: الصبر على صحبة الأخيار الزاهدين في زينة الحياة الدنيا

- قال تعالى ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[الكهف: ٢٨].

روى مسلم في صحيحه: عن سعد ابن أبي وقاص أنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يتجرئون علينا!.

قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[1].

هذه الآية تحث النبي ﷺ– وغيره أسوة به ﷺ – أن يصبر نفسه مع المؤمنين العُبَّاد المخلصين في عبادتهم لله، الذاكرين الله عز وجل بُكرة وعشياً، وفيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم سواء أكانوا فقراء أو أغنياء، لذلك ﴿ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تجاوزهم إلى غيرهم، ولا تطلب بدلهم من أصحاب الشرف والجاه ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فلا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة الزائفة التي يستمتع بها أصحاب الزينة.

﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾.. لا تطع أهواء من يطلب التمييز بينهم وبين الفقراء، الذين أغفل الله قلوبهم عن ذكره، واتبعوا أهواءهم، وكانت أوقاتهم ضائعة معطلة، فهؤلاء محرومون من ذكر الله، ولو رزقوا ذكر الله والأنس به لاستشعروا إجلال الله الذي تتساوى في ظله الرؤوس، ولكن المقاييس عندهم مُختلة، كما قال فرعون على موسى عليه السلام: ﴿ فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[الزخرف: ٣٥]، إنها مقاييس الجاهلية في تقييم الناس على حسب ما معهم من الزخرف والمتاع في

(١) مسلم (٢٤١٣ / ٤٦).

هذه الحياة، وهذه كلها قيم زائفة وقيم زائلة، فالقيم الحقيقية في ميزان العقيدة ليست هي المال، وليست هي الجاه.. ليست هي القوة، وليست هي السلطان.

إنما القيم الحقيقية في ميزان العقيدة هي: قيمتك عند الله، ومكانتك في ميزان الله، قال تعالى ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[الزخرف: ٣٢]، وقوله تعالى ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾[الإسراء: ٢١].. أما أصحاب زخرف الحياة اللاهثين وراء زينتها فلا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً، قال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾[الكهف: ١٠٥].

إن الدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة، أو من يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع، ويقودوا بها الأتباع!

إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب المتجردة لله عز وجل الخالصة له، والتي لا تبغي جاهاً ولا متاعاً ولا انتفاعاً، إنما يريدون وجهه ويرجون رضاه، والعقيدة لا تنتصر إلا بمثل هؤلاء الذين يتطلعون إلى ذلك الأفق العالي والدرجات العُلى في الآخرة، حتى لو قضوا حياتهم كلها في كهف في سبيل الله..

ثانياً: حوار بين كافر مغرور بزينة الحياة ومؤمن فقير معتز بالله

- قال تعالى ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾[الكهف: ٢٣– ٣٣].

هذه قصة ومثال مضروب للعبرة والعظة، على هيئة حوار بين نموذجين يمثلان القيم الزائلة والقيم الباقية، بين رجل ثري معتز بزينة الحياة، ومؤمن فقير معتز بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين أتاه الله من زينة الحياة فاغتر بها، ونسى المنعم وجحد بفضله، فسقط في الاختبار والفتنة، ورجل مؤمن فقير معتز بعقيدته وإيمانه، ذاكراً لربه شاكراً لأنعمه، ينسب الفضل لصاحبه والقوة لمُسديها، متيقناً أن ما عند الله خير من الدنيا وما فيها..

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله عن هذه القصة:

"تبدأ القصة بمشهد الجنتين: جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينها نهر.. إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال: ﴿ جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾.. ويختار التعبير كلمة " تظلم " في معنى: تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبها، الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، فينتفش كالديك ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير:

﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه بالبطر والغرور، وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبداً، أنكر قيام الساعة أصلاً، وحتى لو قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلابد أن يكون جنابه ملحوظاً في الآخرة!

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾[الكهف: ٣٥– ٣٦].

فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر.. فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى. معتز بعقيدته وإيمانه. معتز بالله الذي تعنو له الجباه، فهو يجابه صاحبه المتبطر المغرور منكراً عليه بطره وكبره، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم، وينظره عاقبة البطر والكبر. ويرجو عند ربه ما هو خير من المتاع والثمار:

﴿قال لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾[الكهف: ٣٧– ٤١]..

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، بل تصدع بالحق ولا تتلعثم فيه أو تجامل

فيه أحد، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله. وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار. ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار، وحدث ما توقعه العبد المؤمن: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾[الكهف: ٤٢].

مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر، والجنة خاوية على عروشها، فلم يسلم منها شيء، وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب. وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته.

وهنا يتفرد الله بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره، وثوابه هو خير الثواب، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ثواباً وخير عُقباً: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً (٤٣) هُنَالِكَ الوَلايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾[الكهف: ٤٣- ٤٤] وكما حدث مع قارون المتبطر المغرور بزينة الدنيا: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ﴾[القصص: ٨١]. وهنا يسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً، وجلال الله يظل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان " [1].

وهكذا نجد تأييد الله لعبده المؤمن الضعيف على صاحبه القوي المغرور، بتحقيق ما تيقنه من تدمير الله لجنته، فأصبحت صعيداً زلقاً، وهكذا نجد أسباب المال والجاه والأنصار لم تدفع عذاب الله وقدره عن هذا الرجل القوي المغرور، قال: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ولكنه قال: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ ولكن السؤال الآن: ما هو الشرك الذي أشرك به هذا الرجل القوي المغرور؟

والإجابة: لقد أشرك بالله نفسَه التي بين جنبيه، إنها الوثن الذي عبده، لقد جعل إلهه هواه، فخذله الله الذي جعل ولايته ونصره لمن كان مُفرِداً لربه بالعبادة والاستعانة: ﴿لَكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾..

(١) تفسير الشعراوي للقرآن الكريم، ٢٢٧١/٣.

ثالثاً: هذه هي حقيقة الحياة الدنيا: زينة.. وفتنة

- **قال تعالى ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾[الكهف: ٤٥- ٤٦].**

هذه هي حقيقة الحياة الدنيا، كتلك الجنة التي كانت في ازدهار، فإذا بها في لحظة خاطفة في بوار، لا بقاء لها ولا قرار، فأيهما أولى بالإيثار: ساعة من نهار أم دار القرار؟!.

تعرض لنا الآيات بعد قصة صاحب الجنتين مشهداً قصيراً خاطفاً يبعث في النفس القيمة الحقيقة للدنيا الزائلة الفانية:

- **ماء ينزل من السماء فلا يجري ولا يسيل ولكن يختلط به نبات الأرض.**
- **والنبات لا ينمو ولا ينضج.**
- **ولكنه يصبح هشيماً تذروه الرياح..**

وما بين ثلاث جمل قصار، ينتهي شريط الحياة، والنسق اللفظي يستخدم في تقصير عرض شريط الحياة، بالتعقيب بالفاء:

" مَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ" ف" فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ "ف "أَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ".. فما أقصرها حياة! وما أهونها حياة!.

وبعد هذا المشهد الخاطف القصير للحياة في هذه الدار، يقرر السياق القيم الزائلة والقيم الباقية بميزان العقيدة:

﴿ المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[الكهف: ٤٦]..

المال والبنون زينة الحياة، والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات، ولكنه يعطيهما القيمة التي تستحقها؛ الزينة في ميزان الخلود: إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة. فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يُقدَّروا على أساسها في الحياة. إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات، فهذه خير عند

الله ثواباً وخير أملاً، فثوابها يبقى ويتضاعف، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء، وهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجدَّ في تحصيلها المجتهدون.

قال ابن عباس: ﴿الباقيات الصالحات﴾ سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وأضاف عثمان بن عفان: ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير رحمه الله [١].

إن حقيقة الحياة الدنيا أن كل ما على وجه الأرض زينة أي فتنة واختبار: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الكهف:٧].

والمال والبنون فتنة واختبار: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التغابن: ١٥].. يبتلي الله عباده بجعل النفوس مجبولة على حب المال والبنون، والفتنة بهما تعني أن يصبح العبد أسيراً لهما، قال رسول الله ﷺ: " لعن عبد الدينار، لعن عبد الدرهم "[٢].

وروى كعب بن عياض ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن لكل أمة فتنة، وأن فتنة أمتي المال "[٣].. فالمال مال الله، وما الإنسان إلا أمين عليه. مستخلف فيه: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧] والافتتان بالمال يحدث عندما يعيش المرء من أجل تحصيله، ولا ينفقه كما قدَّره الله، فيُفسد المال على المرء حياته ودينه، روى كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لهما من حرص المرء على المال والشرف لدينه"[٤].. يقصد بالشرف الجاه ورغبة العلو في الأرض، فالذي يصنعه الذئبان الجائعان في الغنم من الإهلاك والإفساد، يصنعه الحرص على المال والجاه في دين المرء من الإهلاك والإفساد.

والنجاة من هذه الفتنة تكون بتعامل المرء مع المال على أنه وسيلة لإرضاء الله، فلا ينشغل به على حساب دينه، كما ينفقه في مصلحة عباد الله، في جلب منفعة لهم ودفع مضرة عنهم، وأن يجعل العبد ماله زاداً للآخرة:

(١) عمدة التفسير، مختصر تفسير ابن كثير، ٤٧٧/٢.
(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ.
(٣) رواه الترمذي (٢٣٣٧) وقال: حسن صحيح.
(٤) رواه الترمذي (٢٣٦٧)، وقال: حسن صحيح، وابن حبان في صحيحه (٢٤٧٢).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦١].. إذا أنفق العبد ماله في سبيل الله، وأنفقه ليل نهار سراً وجهراً في أبواب الخير، فقد نجا بعون الله من فتنة المال، ونجح في اختباره، وسار ماله مالاً صالحاً كما في الحديث:" نعم المال الصالح في يد العبد الصالح"(١).

أما الولد فقد يفتن أبويه عن دينهما بطغيانه وفساده ﴿وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾[الكهف: ٨٠].. بينما من أحسن تربية أولاده وتزكيتهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، لا شك أن هؤلاء الأولاد سيكونون عوناً لوالديهم على الخير في حياتهم، وامتداداً لهم بعد وفاتهم، كما جاء في الحديث الشريف: "ينقطع عمل العبد بموته إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، وعلم ينتفع به، وصدقة جارية"(٢).

.. وبذلك ينجو العبد بعون الله من فتنة الأولاد وينجح في اختبارهم.

إن المؤمن إذا تشكلت عنده القيم بميزان العقيدة، عظمت لديه القيم الباقية من الإيمان والعمل الصالح، وحقرت عنده القيم الزائلة الدنيوية التي تبهر الأنظار وتفتن العقول وتفسد الدين، فإنه بذلك قد صح تصوره لحقيقة الحياة الدنيا وتيقن أن الدنيا هي سجن المؤمن وجنة الكافر..

مقصد الإعداد لليوم الآخر: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"

- قال تعالى ﴿ وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف: ٢٩].

أعد الله للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها أي أحاط بهم أسوارها، فالله عز وجل جعل للنار سوراً يحيط بها، فلا سبيل للهرب منها، وليس لأهل النار منفذاً أو طريقاً للنجاة والإفلات، ولا مطمع في منفذ تهب منه نسمة، أو يكون فيها استرواح فإن استغاثوا من الحريق والظمأ أغيثوا.. ولكن أغيثوا بماء كالزيت المغلي في شدة حرارته، يشوي الوجوه بالقرب منها، فكيف بالحلوق والأمعاء التي تتجرعه ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ الذي يُغاث به الملهوفون

(١) رواه البخاري (٢٩٩) الأدب المفرد.
(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

من الحريق ليطفئ عطشهم، ويدفع عنهم العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة في عقابهم ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ يا لسوء النار مكاناً للارتفاق والاتكاء، فليس هنالك ارتفاق أو استرواح، إنما مكاناً للاشتواء، فلا يفتر عنهم العذاب ساعة، إنما ذكر الارتفاق في سرادق النار تهكم مرير، ومقابلة مع ارتفاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات هنالك في الجنان للإقامة والنعيم الأبدي والفرح الدائم والراحة والسرور السرمدي:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾[الكهف: ٣٠- ٣١]..

وشتان بين المنزلين: منزلاً فيه بهجة المنظر واعتدال النسيم في البساتين والأنهار، وبين منزل فيه كآبة المنظر ونسيم من سموم [١]وحميم وظل من يحموم [٢]لا بارد ولا كريم.

وشتان بين ثياب من نار وسرابيل من قطران [٣]، وبين ثيابٍ خضرً من سندس وإستبرق..

إن جهنم في وصف القرآن كثيراً ما توصف بأوصاف السجن، فهي داراً ضيقة لها سور محكم، وأهلها مقيدين بالسلاسل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾[الفرقان: ١٣]، مقرنين أي: مقيدين بسلاسل من حديد، وقوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[الحاقة: ٣٠]، فأول ما يؤمر لصاحب النار يوم القيامة بتقييده في السلاسل ليساق إلى جهنم ﴿ ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾[الحاقة: ٣١- ٣٢]، يُقيد كل واحد منهم في عنقه ويديه مرفوعة إلى عنقه: ﴿ إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِي الحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[غافر: ٧١- ٧٢]، ثم يسلسلون سوياً على هيئة أفواج ومجموعات: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ﴾[ص: ٥٩]..، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾[الزمر: ٧١]، ﴿ وَتَرَى المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[إبراهيم:٤٩] أي مقيدين مع بعضهم البعض بالقيود والأغلال.. تستقبلهم زبانية غلاظ شداد بمقامع من حديد يبادرونهم بها: ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[الحج: ٢١]، الزبانية تقمعهم فيؤخذون بالنواصي والأقدام، ﴿يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ

(١) سموم: ريح شديدة الحرارة تدخل المسام.
(٢) يحموم: دخان شديد السواد.
(٣) قطران: مادة قذرة نتنة الرائحة، وشديدة السواد، سريعة الاشتعال.

فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾[الرحمن: ٤١]، يُلقون في دركات فينزل كل واحد في مستقره الجديد، فإذا به في مكان ضيق مظلم، ثم تغلق عليه الأبواب ،وتؤصد فلا تُفتح أبداً لهم ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾[الهمزة: ٨– ٩] فلا منفذ للهرب، ولا مخرج للاسترواح، فيزداد غمهم وكربهم، ويتسلم كل واحد منهم ملابسه من القطران المقطع من النار: ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾[الحج :١٩]

ثم تبدأ ألوان العذاب والشدائد العظام تلاحقهم: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾[الحج: ١٩– ٢٠]، لا يفتر عنهم العذاب لحظة، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾[الحج: ٢٢]، تخصص لهم فرش وأغطية ولكن؟! فرش من نار وأغطية من نار: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[الأعراف: ٤١]، فيشتد بكاؤهم وصراخهم حتى تنقطع دموعهم، ثم يبكون دماً، يتمنى الواحد منهم أن يفتدي نفسه من هذا السجن، ولو بأولاده وزوجته، وعشيرته، بل بأهل الأرض جميعاً: ﴿ يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[المعارج: ١١– ١٤]، يتمنى أحدهم الموت فلا يجده ﴿وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[إبراهيم: ١٧]، يُنادون على الزبانية فلا أحد يجيبهم، يطلبون تخفيف يوماً واحداً من العذاب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العَذَابِ﴾[غافر: ٤٩]، فيأتيهم الرد: ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾[غافر: ٥٠]، فيلجأون بالنداء على مالك خازن النار وهم يصيحون ويقولون: ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾الزخرف: ٧٧]، فيجيبهم – قيل بعد ألف عام – ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[الزخرف: ٧٧]!!

هذا هو نزلهم يوم الدين.. هذا هو سجن الآخرة مرتفقاً للمجرمين الذين كانوا يسجنون المؤمنين في الدنيا، وإذا مروا بهم كانوا يضحكون ويتغامزن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾[المطففين: ٢٩– ٣٢]، فتنقلب الأوضاع يوم القيامة فيلقى المجرمون في سجن النار، وينظر إليهم المؤمنون وهم ينعمون في قصورهم الرحيبة، وهم يضحكون حين يرونهم في العذاب والنكال، وقد اقتص الله لهم وجازى المجرمين

من جنس عملهم: ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المطففين: ٣٤- ٣٦]..

لقد تبدلت الأحوال وانقلبت الأوضاع، فالمجرمين الذين كانوا يتلذذون بتعذيب المؤمنين والتنكيل بهم، صاروا الآن في عذاب ونكال من جنس ما كانوا يفعلون بالمؤمنين جزاءً وفاقاً، وكل النعيم الذي كانوا ينعمون به في الدنيا يتلاشى أثره، وينسون مذاقه مع أول غمسة لهم في النار: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[الشعراء: ٢٠٥ – ٢٠٧].

فالدنيا أهون عند الله من جناح بعوضة، ولا ضير أن تكون الدنيا جنة الكافر، يُنعم فيها ثم يكون مرتفقه في الآخرة ﴿ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾[الكهف: ٢٩].

لا ضير أن يكون للكافر في الدنيا جنتان وليس جنة واحدة، جنتان من أعناب ويحيط بهما النخل والزرع، وتتفجر فيهما الأنهار، ويرزق فيهما بأطيب الثمار –كما كان لصاحب الجنتين – لا قيمة لذلك ما دام في دار الغرور، فهو نعيم زائل وزخرف فاني، وزينة شكلية مؤقتة ستصبح الأرض كلها عما قليل صعيدا جرزاً ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾[الكهف: ٨].

أما المؤمنون فلهم جنات عدن في الآخرة: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾[الكهف: ٣١].. للمؤمنين في الجنة قصوراً واسعة رحيبة بعدما لبثوا في دور ضيقة خشنة في الدنيا في سبيل الله، كمن مكثوا في الكهف الضيق الخشن فراراً بدينهم واعتزازاً بتوحيدهم: ها هم اليوم لهم مساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار..

ها هم اليوم لهم أساور من ذهب بعدما قيدوا في الدنيا بسلاسل من حديد.. ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ الكهف: ٣١] فها هم في ارتفاق حقاً متكئين على الأرآئك، دليلاً على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب الذي لقوه في الدنيا في سبيل الله، وهم

اليوم رافلون في أطيب الثياب التي حرموا منها في الدنيا، ثياب فاخرة من الحرير السندس الناعم الخفيف ومن استبرق مخمل كثيف. الفاكهة تدنوا منهم وهم متكئين على فرشهم ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[الرحمن: ٥٤]، يطوف عليهم ولدان مخلوقين من الجنة يعملون على خدمتهم، وتوفير لهم كل ما يطلبون: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾[الطور: ٢٤].. لا يبذلون فيها أي نصب أو مشقة: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾[الإنسان: ١٣- ١٥]..

ولكن السؤال: هل يُدرك أهل الجنة هذا المستوى الراقي من النعيم السرمدي والراحة الأبدية، بنعيم مثله وراحة مثلها في الدنيا؟ كيف يكون ذلك؟ الحقيقة هي أن الدنيا سجن المؤمن، يعاني فيها المؤمن من التضييق والحرمان، ويلاقي فيها من الغربة والوحشة، ويكابد فيها النصب والتعب.. فالنعيم لا يُدرك بالنعيم، ومن آثر الراحة فاتته الراحة، فالقرآن وصف أهل الجنة في الدنيا أنهم في حَزَن وإشفاق.. ونصب ومخمصة، قال تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر: ٣٤- ٣٥]، وقال تعالى لأهل الجنة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾[الحاقة: ٢٤].

وكثيراً ما يصف لنا القرآن الكريم حياة المؤمنين في الدنيا بأنها: ضر وكرب.. وبذل وتضحية.. وقيام وصيام.. وظمأ ومخمصة.. ودماء وأشلاء.. وخوف وإشفاق.. وحركة وجهاد..

فمن لم تكن هذه هي حياته في الدنيا، فكيف يُدرك النعيم الأبدي والراحة السرمدية في جنات عدن؟

بصرتُ بالراحة الكبرى فلم أرها ***تُنال إلا على جسرٍ من التعب

ومن كانت هذه حياته فليصبر قليلاً ليهنأ طويلاً:

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي **** ثم يحمد غبّ السير من هو سائرُ

لذا فعلى المؤمنين المبتلين في سبيل الله الصبر، وعدم تعجل هلاك الظالمين، مع ضرورة أخذ المؤمنون بأسباب

دفع الظالمين التي أمرهم الله بها، ثم ترك تقدير موعد إهلاك الظالمين لله عز وجل الذي جعل لمهلكهم موعداً، قال تعالى: ﴿بِل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدا﴾[الكهف: ٥٨- ٥٩].

المقطع الثالث (من الآية ٦٠: الآية ٨٢) الصبر على تحصيل العلم، والتيقن من تدبير الله للأمور بحكمته ورحمته وفق علمه الشامل

- سنتناول بعون الله وتوفيقه عرض هذا المقطع في العناصر التالية:

أولاً: السعي لتحصيل العلم والصبر عليه، مع رد العلم لله.

ثانياً: التيقن من تدبير الله الخفي لأمور العباد بحكمته ورحمته وفق علمه الشامل.

- مع عرض مقصد تزكية النفس: " العائشون بالله والعلاقة بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله".

تقدمة للمقطع الثالث

انتهى المقطع السابق من السورة بحث المؤمنين على الصبر وعدم العجلة على هلاك الظالمين، فالله عز وجل يمهلهم لموعد لن يجدوا من دونه ملجأً، موعد في الدنيا يحل بهم فيه شيء من العذاب، وموعد في الآخرة يوفون فيه الحساب.

ثم يأتي المقطع الثالث في سورة الكهف ليستعرض لنا قصة موسى عليه السلام مع الخضر ذلك العبد الصالح الذي أتاه الله من رحمته وعلَّمه من لدنه علماً، وهذه القصة العجيبة تأتي في هذا الموضع من السورة لتُعلِّمنا ظاهراً أهمية السعي إلى تحصيل العلم النافع، وضرورة الصبر عليه، مع الإقرار بقصور علم البشر، وشمول علم الله وإحاطته بكل شيء، ومن ثم ضرورة رد كل علم يتعلمه الإنسان إلى الله عز وجل الذي علمه وتفضل عليه، كما تعلمنا هذه القصة درساً هاماً يلخص حقيقة العلم الذي علمه الخضر لموسى عليه السلام وهو: أن الله عز وجل وحده هو علاَّم الغيوب، وأن تدبيره سبحانه لأمور عباده يتم بحكمته ورحمته وفق علمه الشامل المحيط، ومن ثم وجب على العباد التيقن في أن التدبير الإلهي الخفي لهم فيه عين الرحمة، ومن ثم عليهم الصبر وعدم التعجل .

وإلى التفصيل بإذن الله . .

أولاً: السعي لتحصيل العلم والصبر عليه، مع رد العلم لله

- قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَباً (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾[الكهف: ٦٠- ٦٢].

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: حدثنا أُبي بن كعب ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "قَامَ مُوسَى خَطِيبًا في بَنِي إسْرَائِيلَ فقِيلَ له: أيُّ النَّاسِ أعْلَمُ؟ قالَ: أنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عليه إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلَيْهِ، وأَوْحَى إلَيْهِ: بَلَى عَبْدٌ مِن عِبَادِي بمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هو أعْلَمُ مِنْكَ، قالَ: أيْ رَبِّ، كيفَ السَّبِيلُ إلَيْهِ؟ قالَ: تَأْخُذُ حُوتًا في مِكْتَلٍ، فَحَيْثُما فقَدْتَ الحُوتَ فَاتَّبِعْهُ، قالَ: فَخَرَجَ مُوسَى ومعهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بنُ نُونٍ، ومعهُما الحُوتُ حتَّى انْتَهَيَا إلى الصَّخْرَةِ، فَنَزَلَا عِنْدَهَا، قالَ: فَوَضَعَ مُوسَى رَأْسَهُ فَنَامَ، قالَ: فَتَحَرَّكَ وانْسَلَّ مِنَ المِكْتَلِ، فَدَخَلَ البَحْرَ فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ مُوسَى قالَ لِفَتَاهُ: {آتِنَا غَدَاءَنَا} الآيَةَ، قالَ: ولَمْ يَجِدِ النَّصَبَ حتَّى جَاوَزَ ما أُمِرَ به، قالَ له فَتَاهُ يُوشَعُ بنُ نُونٍ: {أَرَأَيْتَ إذْ أَوَيْنَا إلى الصَّخْرَةِ فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ} الآيَةَ، قالَ: فَرَجَعَا يَقُصَّانِ في آثَارِهِمَا، فَوَجَدَا في البَحْرِ كَالطَّاقِ مَمَرَّ الحُوتِ، فَكانَ لِفَتَاهُ عَجَبًا، ولِلْحُوتِ سَرَبًا، قالَ: فَلَمَّا انْتَهَيَا إلى الصَّخْرَةِ، إذْ هُما برَجُلٍ مُسَجًّى بثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عليه مُوسَى، قالَ: وأنَّى بأَرْضِكَ السَّلَامُ، فَقالَ: أنَا مُوسَى، قالَ: مُوسَى بَنِي إسْرَائِيلَ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: هلْ أتَّبِعُكَ علَى أنْ تُعَلِّمَنِي ممَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا؟ قالَ له الخَضِرُ: يا مُوسَى، إنَّكَ علَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لا أعْلَمُهُ، وأنَا علَى عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لا تَعْلَمُهُ، قالَ: بَلْ أتَّبِعُكَ، قالَ: فَإنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عن شيءٍ حتَّى أُحْدِثَ لكَ منه ذِكْرًا﴾"[1].

هذه الحلقة من سيرة موسى عليه السلام، والتي لم ترد في القرآن كله إلا في هذا الموضع من سورة الكهف، تبين لنا رحلة نبي الله موسى التي اعتزمها قاصداً طلب العلم، مع شدة رغبته في تحصيله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ﴾ أي: لا أزال مسافراً، مصمما على بلوغ مجمع البحرين مهما لحقتني

(١) رواه البخاري (٤٧٢٥).

المشقة، ومهما يكن الزمن الذي أنفقه في الوصول ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾..

ونبي الله موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل وغير ذلك، قال عنه سبحانه وتعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ﴾[القصص: ١٤]..

ورغم ذلك اختار السفر الطويل لزيادة العلم، وفي ذلك قدوة وحث على التزود بالعلم النافع دوماً، ولقي النصب في طلبه، والعلم من أهم وأقوى أسباب التمكين، قال تعالى عن نبيه داود: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾[ص: ٢٠] أي: قوينا ملكه بما أعطيناه من أسباب التمكين، وآتيناه النبوة، والعلم العظيم لفصل الخصومات بين الناس. لذلك ينبغي على طالب العلم الصبر على صحبة العالم، وعلى تحصيل العلم.

كما يظهر لنا من حديث أُبي بن كعب ﷺ أن هذه الرحلة كانت عتاباً من الله لنبيه موسى إذ لم يرد العلم إليه، لما سُئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، ولا شك أن نبي الله موسى عليه السلام كان يتيقن أن علمه هذا من فضل الله عليه، مثله مثل سائر الأنبياء في ذلك، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[يوسف: ٣٧]، وكما جاء عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ﴾[النمل: ١٥].

وكما ذكر الخضر في حديثه لموسى عليه السلام: " يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علَّمكه الله لا أعلمه "..

وفي رد العلم ونسبته إلى الله، إقرار بصاحب الفضل في هذا العلم، وقطع الطريق على النفس حتى لا تفرح بما آتاها الله، أو تختال وتتكبر به على خلق الله، والله عز وجل لا يحب كل مختال فخور: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[النساء: ٣٦].

وفي رد العلم ونسبته إلى الله، شكر لله عز وجل على نعمته، يفتح باباً بإذن الله إلى زيادة هذا العلم ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[إبراهيم: ٧].

كما أن في ذلك إقرار أن ما تعلمه العباد من علم فهو قليل ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[الإسراء: ٨٥].

وقد جاء في حديث الخضر مع موسى عليه السلام: " جاء عصفور فوقف على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضر لموسى عليه السلام: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر "(١).

ثانياً: التيقن من تدبير الله الخفي لأمور العباد بحكمته ورحمته وفق علمه الشامل

- قال تعالى ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٢) قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾[الكهف: ٧١- ٧٣].

اشترط الخضر على موسى عليه السلام ألا يسأله عن شيء أنكره، حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾ [الكهف: ٧٠].. وهنا الخضر يعلم أن موسى عليه السلام سينكر عليه ما هو معذور فيه، لأن شرع الله يجري على الأحكام الظاهرة، وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عن أمور ظاهرها أنها من المنكر، ولكن هذه الأمور التي سيقوم بها الخضر هي من أمور الغيب التي أطلعه الله عز وجل عليها: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[الكهف: ٦٥]، وقد وجهه الله إلى التصرف في هذه الأمور وفق ما أطلعه عليه من غيب ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[الكهف: ٨٢].

لذلك نجد أن الحكمة الكبرى من هذه القصة هي في طبيعة العلم الذي أراد الخضر أن يعلمه لموسى عليه السلام، والذي أراد الله عز وجل لنا أن نتعلمه من هذه الحلقة من سيرة موسى عليه السلام، وهو أن الله عز وجل هو علاَّم الغيوب وحده، وأن أفعاله حكمة كلها، وفيها مصلحة العباد كلها، وأن تدبير الله الخفي الذي لا يدركه علم البشر القاصر فيه الخير كله، وتعلم هذا العلم وإدراكه بالمواقف العملية والحوادث من شأنه أن يورث اليقين لدى العباد في تصريف الله لأمور خلقه، ومن ثم يورث حسن التوكل عليه والاستعانة به، والصبر على

(١) في الحديث السابق: انظر عمدة التفسير، ٤٨٥/٢.

مراده وتدبيره، وعدم تعجل النتائج المرجوة، وهذا المعنى هو ما اختتمت به آخر آيات المقطع السابق لقصة موسى عليه السلام مع الخضر في قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ بِل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾[الكهف: ٥٨- ٥٩]. ولذلك جاء تكرار كلمة " الصبر" في هذه القصة كثيرا ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾[الكهف: ٦٧-٦٨]، حتى قوله تعالى﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [الكهف:٨٢].

لقد خرق الخضر سفينة المساكين، وقتل الغلام المسكين، وأقام الجدار ولم يطلب عليه أجراً في قرية أبى أهلها أن يضيفوهما..

لقد أتى الخضر بأفعال غريبة غير منطقية، تصرفات عجيبة لا مبرر لها، والإنسان قد اعتاد في منطق الأسباب أن الأسباب المعقولة هي التي تحقق النتائج المرجوة، ولكن قد تكون هذه الأسباب المعقولة لنا فيها هلاك للعباد وهم لا يدرون، وهذا ليس معناه ألا يأخذ العبد بالأسباب المعقولة، ولكن عليه أن يتقين أن الله عز وجل قد يهيئ له أسباباً أخرى لا تخطر بباله تحقق النتيجة المطلوبة، فما عليه إلا أن يأخذ بالسبب ويُحسن التوكل على مُسبب الأسباب، كما أن عليه أن يصبر على مجريات الأحداث القدرية التي لا دخل له فيها، مع يقينه في تدبير الله الخفي له بالخير والمصلحة والرحمة.

لقد كتب الله نجاة السفينة بخرقها، فبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصباً: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[الكهف: ٧٩]..

لقد أراد الله عصمة والدي الغلام المؤمنين من فتنته لهما بكفره وطغيانه، فيتبعان طريقه بدافع حبهما له، فأراد الله أن يبدلهما خلفاً خيراً منه، وأرحم بوالديه: ﴿ وَأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾[الكهف: ٨٠- ٨١]..

لقد أراد الله عز وجل إقامة الجدار لحفظ كنز تحته لغلامين يتيمين ضعيفين، ولو تُرك الجدار ينقض لظهر الكنز،

فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه.. ولما كان أبوهما صالحاً فقد نفعهما الله بصلاح والديهما، وأراد أن يستخرجا كنزهما بعد أن يكبرا ويشتد عودهما، فيقدران على حمايته: ﴿وَأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[الكهف: ٨٢]..

إنها رحمة الله وحكمته ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[الكهف: ٨٢].. إنها الرحمة الواسعة والحكمة المغيبة في تدبير الله عز وجل لأمور خلقه، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر، الذين وجب عليهم السعي والأخذ بالأسباب مع تمام تعلقهم واستعانتهم بربهم سبحانه وتعالى.

مقصد تزكية النفس: "العائشون بالله والعلاقة بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله"

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: " اعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة، لأن الله سبحانه وتعالى قضى بوقوع الشبع إذا أكل المرء، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو، وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة، إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة. وقضى بدخول الجنة إذا أسلم، وأتى بالأعمال الصالحة، فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبداً، وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، وإلقاء البذر فيها. فمن لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.

أما ما قاله منكروا الأسباب: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الشبع، والري، والحج ونحوها فلابد أن يصل إليَّ، تحركت أو سكنت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضاً، فعلت أو تركت.

فهل يُعَّد أحد هذا من جملة العقلاء؟

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

وما أخل رسول الله ﷺ بشيء من الأسباب، وقد قاتل بين درعين يوم أحد، ولم يحضر الصف[1] قط عرياناً، كما يفعله من لا علم له عنده ولا معرفة، واستأجر دليلاً مشركاً على دين قومه، يدله على طريق الهجرة، وقد هدى الله به العالمين، وعصمه من الناس أجمعين، وكان يدخر لأهله قوت سنة[2] وهو سيد المتوكلين..

ولا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل هي: توحيد القلب فإذا التفت العبد إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه. فنقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشعبة. ومن ها هنا ظنَّ أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح. فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً منها متصلاً بها، والله سبحانه وتعالى أعلم "[3].

إذن حقيقة التوكل هي أخذ الأسباب بالجوارح، وعدم التفاتة القلب إليها أو الركون إليها، وإلا وقع القلب في شرك الاستعانة بغير الله، وعلى قدر تجريد القلب من علائق الشرك تتحقق منزلة: ﴿ إياك نستعين ﴾، ويكون تمام التوكل بزوال أي تشويش للأسباب على القلب، وذلك مع جد الأخذ بها، إلا أن القلب لا يبالي بإقبالها وإدبارها، بل إن القلب يرى أن الذي هيئ الأسباب هو الله، وأن الذي سخرها له هو الله، وأن الذي إذا شاء جعلها تثمر النتيجة المرجوة هو الله، أو إن شاء عطلها وأتى بالنتيجة المرجوة من غيرها سبحانه وتعالى.

فالذي يحرك الأسباب هو الله، ومن هنا لا يلتفت مؤشر القلب يُمنة أو يُسرة مع الأسباب ألبتة، ويظل القلب يشاهد أن قيامه بالله، لا بنفسه ولا بالأسباب التي يتحرك فيها بدنه وجوارحه..

وهذه هي المعادلة الصعبة، وحقيقة الاختبار بالأسباب، أن يتقين العبد ضرورة الأخذ بالسبب بجوارحه، وأن يتيقن القلب أن هذا السبب أمر شكلي وهامشي ليس له أي علاقة بالنتيجة. فالسبب لا يُنشئ أثراً في ذاته، كمثال المريض عليه الأخذ بالدواء، لكن الشافي هو الله عز وجل، إذا شاء شفاه بهذا الدواء أو بغيره، فإذا أصاب الدواء الداء برئ العبد بإذن الله.

إذن حقيقة الاختبار أن الله عز وجل أراد أن تجري سنته في الكون بالأخذ بالأسباب مع التعلق بربوبيته وقضائه

---

[1] صف المعركة

[2] رواه البخاري ومسلم

(٣) تهذيب مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ص ٢٨٣: ٢٨٤.

وقدره، وهذا يعني أن كل الأمور تصدر عن مشيئة الله وقدرته، فكلاً من السبب والنتيجة يتحركان بمشيئة الله وقدرته، فلا يستقيم أن يأخذ العبد بالسبب، ويعتقد أن الفاعلية كامنة في هذا السبب بذاته، وإلا صار هذا الاعتقاد نوعاً من الشرك، ولا يستقيم أيضاً ألا يأخذ بالأسباب، لذلك فالأخذ بالأسباب: واجب، والاعتماد عليها: شرك، والمتوكل على الله يفعل ما أمره الله به من الأسباب التي هيئها الله له، مع يقينه بالله في إتيانه سبحانه بالنتيجة من الأسباب التي أخذ بها، أو من غيرها، وهذه حقيقة أن يعيش العبد بالله، وتتحقق آثار اسم الله: (القيوم) في قلب هذا العبد المؤمن، فيعيش قلب المؤمن يشاهد تصريف الأحداث حوله بأمر الله، ويشاهد كل إمداد له وعطاء من الله.

- وفي سورة (الكهف) رأينا كيف قدَّر الله عز وجل تقليب أصحاب الكهف على جنوبهم يميناً وشمالاً، حتى لا تُفسد الأرض أجسامهم، مع أن الله تعالى قادر على حفظهم من الأرض من غير تقليب، ولكنها سنته سبحانه التي أراد أن تجري في الكون بأخذ العباد بالأسباب.

- كما رأينا كيف حفظ الله سفينة المساكين من الملك الظالم بخرق الخضر لها، مع أن الله عز وجل قادر على حفظها بدون خرقها.

- وعلمتنا سورة (الكهف) ضرورة الأخذ بالأسباب، كسعي الفتية للفرار بدينهم حين التجأوا إلى الكهف، ولكن أرشدتنا السورة أن الذي هيئ لهم هذا الكهف، وألهمهم بالذهاب إليه هو الله عز وجل، ففي الآية الأولى جاء قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[الكهف: ١٠]، بينما في الآية الثانية، جاء قوله تعالى ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾[الكهف: ١٦].. فالأولى: سعي من الفتية، وفي الثانية: توجيه وإلهام من الله.. والفعل واحد في الاثنين هو: الإيواء إلى الكهف.

- كما علمتنا سورة (الكهف) ضرورة الاستعانة بالله في كل عمل، وألا يذكر العبد أنه سيمضي في فعل شيء إلا أن يشاء الله، ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[الكهف: ٢٣- ٢٤]، بل إن سورة الكهف

تأخر نزولها خمس عشرة ليلة، لتعلمنا هذا الدرس الهام، وهو ضرورة الاستعانة بالله قبل الشروع في كل عمل، وهو ما جاء في الآية التالية: ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[الكهف: ٢٤]، فيظل العبد بذلك مفتقراً إلى ربه في كل صغيرة وكل كبيرة، مستعيناً به لهدايته إلى كل رشد وكل توفيق وكل سداد.

- ومن ثمرات الاستعانة بالله قبل الشروع في أي أمر:

١. عدم الضلال أو الزيغ لأنك صرت في جناب الله مستجلباً لتوفيقه.

٢. التوجه بالشكر إلى الله في حالة العطاء والتوفيق، وعدم رؤية النفس أو الأسباب لأنك تيقنت أنه صاحب الفضل الذي طلبت منه التيسير والعون.

٣. الشعور بالرضا في حالة المنع، لأنك طلبت الخير منه، وقد يكون الخير في حدوث المنع.

٤. حصول تفويض لله في تدبيره وتصريفه لأمرك، مما يورث الطمأنينة والسكينة.

- كما علمتنا سورة (الكهف) ضرورة رد الأمر لله، ونسبة العلم لصاحبه، كما في قصة موسى والخضر، عندما قال موسى أنه أعلم أهل الأرض، فعاتبه ربه لنسيان أن يرد علمه لله، وفي هذه القصة درساً أن تتيقن النفس أنها قائمة بالله في كل شيء.

- كما علمتنا سورة (الكهف) أن أكثر الأسباب التي تجعل العبد يُشرك بربه، ويفتخر بنفسه ويغتر: أسباب العلم والمال والقوة، كما في قصة صاحب الجنتين الذي قال ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾[الكهف: ٤٢] لما افتخر بنفسه واغتر بماله وجاهه وعزوته، وقدمت لنا سورة (الكهف) نموذج النجاح في التعامل مع هذه الأسباب في قصة ذي القرنين، الذي أتقن الأسباب التي أتاه الله إياها، ثم نسب توفيقه في الأخذ بها إلى الله سبحانه وتعالى كما سنرى بعون الله وتوفيقه بعد قليل..

** إن تحقيق العبد لمنزلة ﴿إياك نستعين﴾ يجعل العبد يعيش بالله في كل أموره، في كل حركاته وسكناته ويطلب من ربه العون والتوفيق قبل الشروع في كل أعماله صغيرها أو كبيرها، فإن تكلم هذا العبد فبالله، وإن نطق

فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله.

وجاء في الأثر: أن موسى عليه السلام استحيا أن يسأل ربه في دقائق الأمور، فأوحى الله إليه: أن يا موسى اسألني حتى في مِلح طعامك وعلف دابتك..

** إن الآية العظيمة الجامعة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عبارة عن: إيواء يحتمي بظله وفي كنفه المؤمن.

وأن يعيش المؤمن بالله هو السبيل لكي يعيش، فالذي يتيقن أن نجاته من الضر والابتلاءات بالله، سيأوي إلى الله ليستنجد به لينقذه ويكشف ما به من ضر.. لذلك فإخلاص الاستعانة يُعين العبد على إخلاص التوجه والقصد.

ونحن الآن في نهاية منزلة: ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مع عرض سورة الكهف، وفي مُستهل منزلة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والتي سنتناولها بعون الله وتوفيقه مع عرض سورة مريم.

المقطع الرابع (من الآية ٨٣: الآية ١١٠) مهمة المؤمنين في طور التمكين هي إقرار الحق بسلطان الله

- سنتناول بعون الله وتوفيقه عرض هذا المقطع في العناصر التالية:

أولاً: مهمة المؤمنين في طور التمكين هي إقرار الحق بسلطان الله.

ثانياً: ضرورة السعي إلى امتلاك أسباب التمكين التي أمر الله بها.

ثالثاً: ختام السورة وملخص لموضوعاتها.

رابعاً: علاقة فتنة المسيح الدجال بسورة الكهف. والله أعلم..

- مع عرض النموذج التطبيقي: ملامح من هجرة رسول الله ﷺ، وصلح الحديبية، وفتح مكة.

تقدمة للمقطع الرابع

انتهت قصة موسى عليه السلام والخضر، واتصل سياق الآيات مباشرة مع قصة ذي القرنين، بدون أية فواصل أو تعقيبات، على عكس ما حدث في القصص السابقة، ليشير السياق إلى ارتباط بين السعي لتحصيل العلم كما في القصة الأولى، وبين الأسباب التي أتاها الله عز وجل لذي القرنين ليُمكِّن له في الأرض، وأهمها: سبب العلم والله أعلم.

هذا العلم وغيره من الأسباب التي امتلكها ذي القرنين بعون الله وبفضله عليه، مضى يأخذ بها ويستفيد منها في إقرار الحق في الأرض بسلطان الله القاهر، فطاف الأرض ووصل إلى أقاصي العمران، وفتح البلدان، وأذل المشركين، واقتص من المعتدين، ووقف في وجه المفسدين، وشيد أعظم سدٍ منيعٍ في التاريخ، سداً قدَّر الله عز وجل له البقاء إلى اقتراب يوم القيامة، يحول بين يأجوج ومأجوج وبين إفسادهم في الأرض، حتى إذا جاء أجل انهيار هذا السد الذي قدَّره الله عز وجل، واقترب الوعد الحق فتحت يأجوج ومأجوج هذا السد المنيع، وذلك بمشيئة الله وحده، فيعلمنا هذا المقطع بإذن الله أهمية السعي إلى امتلاك أسباب التمكين، كما يبين لنا مهمة المؤمنين إذا مكن الله عز وجل لهم في الأرض.

أولاً: مهمة المؤمنين في طور التمكين هي إقرار الحق بسلطان الله

- **قال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾[الكهف: ٨٣- ٨٥].**

لقد امتن الله عز وجل على عبده ذي القرنين وأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم، لإقرار مقتضى شرعه الحنيف في الأرض، بنشر العدل وإقامة الحق، ومحاربة الظلم ومواجهة المفسدين، ومساعدة المحتاجين والزود عن المستضعفين..

هذا السلطان هو عطاء وفضل من الله، أعطاه لنبيه موسى عليه السلام حينما توجه لمواجهة الطاغية فرعون وملئه، قال تعالى ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ﴾[القصص: ٣٥].. فجعل الله عز وجل له: حجة وبرهاناً بالآيات الساطعة، وجعل له هيبة ومنعة وغلبة أزعجت من باشرها ونظر إليها..

وقد أعطى الله ذي القرنين سلطاناً من أسباب الحكم والقوة والفتح، هذه الأسباب لم تذكرها الآيات، ولكن المفسرين أجمعوا أنها بالجملة هي أسباب كثيرة منها: الجند العظيم ذو العدد والعدة والنظام، وآلات الحرب والحصارات، ما جعل الله له بها من الهيبة والمنعة والغلبة، فتمكن بهذه الأسباب وبهذا السلطان من قهر الأعداء، فدانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب ومن العجم، وانطلق يطوف الأرض فاتحاً بسلطان الله الذي أتاه إياه، كما يسَّر الله له أسباب الانتقال بسهولة إلى أقاصي العمران في مشارق الأرض ومغاربها، فأذل الله به أهل الشرك، وأعز الله به أهل التوحيد الضعفاء، وهذه هي مهمة المؤمنين التي علَّمنا القرآن إياها حين يُمكن الله لهم في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[الحج: ٤١].

وأعلا مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو: إقامة المعروف الأكبر بإقرار حاكمية الله في الأرض، والنهي عن المنكر الأكبر بإزالة حكم الطواغيت وتحطيم سلطان الأرباب الزائفة، لتحرير الناس من عبادة العباد

وردهم إلى عبادة رب العباد :﴿ وَقَاتِلُوَهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾[الأنفال: ٣٩]، وهذه هي مهمة المؤمنين في هذه الحياة وعلى هذه الأرض التي اجتباهم الله لها: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨]..

وقد سلك ذو القرنين الأسباب التي أوصلته إلى أقصى مغرب الأرض: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾[الكهف: ٨٥ – ٨٦].

فتح الله لذي القرنين أرضاً بها أمة من الأمم، مكنه الله منهم، وأظفره بهم وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منَّ أو فدى، فعُرِف بعدله وإيمانه، فعمل على إقرار مبادئ الحكم الصالح: ﴿قال أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي: المعتدي الظالم الذي استمر على كفره وشركه بربه، فلا سبيل معه إلا القصاص منه ردعاً له وزجراً لغيره، وفي الآخرة يرد إلى ربه ليعذبه عذاباً نكراً أليماً ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً﴾[الكهف: ٨٧]، وأما من تابعنا على دين الله، وعلى ما ندعو إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، فسيجد الكرامة وحسن المعاملة، والتيسير والجزاء الحسن: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾[الكهف: ٨٨]، فضلاً على ما أعده الله عز وجل له في الدار الآخرة.

ثم سلك ذو القرنين طريقاً أطول فسار من مغرب الأرض إلى مشرقها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً﴾[الكهف: ٨٩ – ٩١]..

وجد الشمس تطلع على قوم يقيمون في أرض مكشوفة، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار، أشبه بالصحراء والسهوب الواسعة، لقد أعلن ذو القرنين –من قبل– مبادئه في الحكم الصالح، فلم يتكرر بيانها هنا، وقد أحاط الله بعلمه الشامل على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى عليه منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فسبحانه رقيب على أفعالهم.

ثم سلك ذو القرنين طريقاً من مشرق الأرض حتى وصل إلى منطقة بها جبلان متجاورين بينهما ثغرة، يخرج منها

يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون في هذه البلاد فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَداً﴾[الكهف: ٩٢ – ٩٤].

وجد هؤلاء القوم المتخلفين ذي القرنين فاتحاً قوياً، فتوسموا فيه القدرة والصلاح، فعرضوا عليه إقامة السد في وجه يأجوج ومأجوج، في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم.

فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ولا رغبة في مغنم أو عرض من الدنيا، وأقر بأن الذي أتاه الله عز وجل خير له مما يعرضونه عليه: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾، وأعلن تطوعه لإقامة السد، وشرع يأخذ في الأسباب التي علمه الله إياها، وطلب منهم أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾[الكهف: ٩٥]، فقام ببناء السد على أحدث ما تتعارف عليه العلوم الحديثة كالتالي:

- طلب منهم أن يجمعوا له قطع الحديد: ﴿آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ﴾.
- ثم كومها في الفتحة بين الحاجزين
- حتى أصبح ركام الحديد بمساواة القمتين: ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾.
- طلب منهم إيقاد ناراً عظيمة، واستعملوا المنافيخ لتشتد هذه النار: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً﴾ ثم قام بتسخين قطع الحديد لينصهر.
- ثم قام بإذابة النحاس، وأفرغه على قطع الحديد المنصهر: ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾، فاختلط الحديد المنصهر بالنحاس المذاب، فتكونت سبائك شديدة الاستحكام والصلابة، فكان سداً منيعاً شاهقاً إلى يوم القيامة بإذن الله ومشيئته، بعلمه سبحانه الذي علَّمه لذي القرنين، الذي بنى سداً لا قدرة لأحد على الصعود عليه لارتفاعه الشاهق، ولا قدرة على نقبه لإحكامه وقوته: قال تعالى ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: ٩٦– ٩٧].

فلما نظر ذو القرنين إلى هذا العمل الضخم الذي قام به، لم يأخذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه تواضع لربه، وشكره سبحانه وتعالى، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه الله إليه، وتبرأ من قوته إلى قوة الله، فنجح بفضل الله في التعامل مع اختبار الأسباب، واجتاز ونجا من الافتتان بنفسه أو بعلمه، وتيقن أنه قائم بالله لا بنفسه، ولم يقل مثل قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص: ٧٨]، بل قال: ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾[الكهف: ٩٨].

واللافت للانتباه أن يأجوج ومأجوج يحاولون منذ هذا التاريخ فتح هذا السد المنيع الشاهق، وذلك كل يوم، ولن يستطيعوا فتحه إلا حينما يستعينوا بالله ويقولوا: " إن شاء الله " في تناسب مع المعنى الذي تهدف إليه الوحدة الموضوعية لهذه السورة العظيمة.

فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: " إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لَيَحفُرون السَّدَّ كلَّ يومٍ حتى إذا كادوا يرون شعاعَ الشَّمسِ، قال الذي عليهم: ارْجِعوا فستَحفُرونه غدًا، فيعيده اللهُ أشَدَّ ما كان، حتى إذا بلغَت مدتُهم، وأراد اللهُ أن يبعثَهم على الناسِ حضروا، حتى إذا كادوا يرَون شعاعَ الشمسِ قال الذي عليهم: ارْجِعوا فستحفرونه غدًا إن شاء اللهُ، واستَثْنَوا، فيعودون إليه وهو كهيئتِه حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناسِ، فينشِّفون الماءَ، ويتحصَّنُ الناسُ منهم في حصونهم، فيرمُون سهامَهم إلى السماء، فترجع وعليها كهيئةِ الدَّمِ الذي أجفظُ، فيقولون: قهَرْنا أهلَ الأرضِ، وعلَوْنا أهلَ السماءِ! فيبعث اللهُ عليهم نَغَفًا في أقفائِهم فيقتلُهم بها، والذي نفسي بيده إنَّ دوابَّ الأرضِ لتَسمَنُ وتَشْكرُ شُكرًا من لحومِهم ودمائِهم "[1].

(١) صحيح: رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٧٦).

ثانياً: ضرورة السعي إلى امتلاك أسباب التمكين التي أمر الله بها

- قال تعالى ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾[الكهف:٨٤- ٨٥].

لقد أخذ ذو القرنين بالأسباب التي هيأها الله عز وجل له، سعى وتحرك يجوب الأرض بجنوده وسلاحه يفتح البلدان ويُقر فيها مبادئ الحكم الصالح الرشيد، استخدم القوة لقهر الأعداء والقصاص من الظالمين المعتدين، واستخدم العلم لتشييد سداً منيعاً شاهقاً، استخدم القوة والعلم وهو يعلم أنهما من فضل الله عليه، ولكن السؤال: هل كان سيقهر ذو القرنين أعدائه وهو ضعيف؟ هل كان سيشيد هذا السد الذي أقيم على أحد قواعد العلوم الهندسية وهو جاهل؟

والإجابة: لن يقيم الحق في الأرض ضعيفا، ولن يقيم العدل في الأرض جاهلا.. لأن المؤمنين المجَتبين عند الله وصفوا بالقوة في الدين، والقوة في العلم: قال تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾[ص: ٤٥].. أولي الأيدي: أي أصحاب القوة في الدين والعبادة، وأولي الأبصار: أي أصحاب العلم النافع والبصيرة النافذة.

إن المؤمنين مأمورون بالسعي الحثيث لتحصيل أسباب العلم والقوة، لكي يمكن الله لهم في الأرض، قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ﴾[التوبة: ٤٦].. فالآية تذم المنافقين لأنهم لو أرادوا الخروج للجهاد في سبيل الله لاستعدوا وأخذوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم الله أنهم ما أرادوا الخروج فكره انبعثاهم مع المؤمنين الصادقين لنصرة دين الله.

وهذه العُدة الواجب التجهز بها، كما في قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]..

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآية: " وأعدوا لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من قوة ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك

مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير، ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذه العلة موجودة في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر نكاية منها على الأعداء، كنت مأموراً بالاستعانة بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[1].. وهناك واجب على كل مؤمن على حدته، من الجاهزية البدنية، وتعلم فنون الرمي كما أمر رسول الله ﷺ " ألا إن القوة الرمي" [2]..

لابد أن يتقن المؤمن الرمي كأخذ بالأسباب، ولكن قلبه يؤمن أن الله عز وجل هو الذي يصيب الأعداء بهذا الرمي كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[الأنفال: ١٧].. وهكذا يجمع العبد بين السعي والجاهزية وتملك أسباب القوة، وبين الاستعانة بالله وحسن التوكل عليه، والتيقن أنه قائم بالله في كل أموره، لا بنفسه ولا بإمكاناته، ولا بالأسباب التي معه..

هذا هو ديننا.. وهذا هو منهج القرآن الكريم، الذي يربي المؤمنين على عدم التراخي أو التواكل في تحصيل أسباب التمكين لدين الله في الأرض، ومن يتيقن ذلك، سيعلم أن الله عز وجل سيهيئ له الوسائل، ويفتح له الطريق، ويهديه إلى كيفية مواجهة أعدائه.. ما دام يمضي في سبيل المؤمنين وفقاً لمنهج القرآن القويم: ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[الأحزاب: ٤]، ﴿ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾[الكهف: ٢٤].. وسيجد بصائر الله أمامه ساطعة، تنطق بها آيات الله، وقام بتطبيقها رسول الله ﷺ في إقامته دولة الإسلام الأولى..

النموذج التطبيقي: ملامح من هجرة رسول الله ﷺ، وصلح الحديبية، وفتح مكة.

إن سيرة الرسول ﷺ هي التطبيق العملي لمنهج القرآن القويم، وقد أخذت السور المكية تتنزل على المسلمين

(١) تيسير الكريم الرحمن في شرح كلام المنان، الشيخ السعدي.
(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، (١٩١٧).

في مكة تربيهم وتثبتهم، وتبصرهم بخطوات طريقهم، وتمهد لهم الحوادث والمناسبات التي سيمرون بها، لذلك لم تكن سور القرآن بالنسبة لهم قصصاً مجرداً عن الواقع الحركي للدعوة التي يحملونها، ومن هنا سنقوم بعون الله باستعراض بعض أحداث من السيرة النبوية التي لها أوجه مناسبة مع قصص سورة الكهف والله أعلى وأعلم، ومنها:

ملامح من هجرة رسول الله ﷺ والعلاقة بين التوكل والأخذ بالأسباب

بعد حادثة الإسراء فتح الله للنبي ﷺ مخرجاً وفرجاً ببيعتي العقبة الأولى والثانية، ثم أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وكانت الهداية إلى مكان الهجرة عوناً من الله عز وجل برؤيا أراها لنبيه ﷺ، كما روى البخاري عن عائشة، قال رسول الله ﷺ للمسلمين: " إني رأيت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين"(١) – وهما الحرتان – وبدأ المسلمون يهاجرون وهم يعرفون أنهم تاركوا ديارهم وأموالهم ومصالحهم إلى غيب مبهم لا يعلموه، وذلك فراراً بدينهم من المشركين، الذين حالوا بينهم وبين خروجهم، وها هو صهيب بن سنان الرومي، لما أراد الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني قد جعلت لكم مالي، وهاجر إلى المدينة"(٢).

ومكرت قريش لقتل رسول الله ﷺ، ونزل جبريل إلى النبي ﷺ بوحي من الله فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه"(٣). تحرك الرسول ﷺ إلى بيت أبي بكر وأبرم معه خطة الهجرة، ورجع إلى بيته ينتظر مجيء الليل، وقد استمر في أعماله اليومية حتى لا يشعرن به أحد أنه يستعد إلى الهجرة، ثم أخذ بأسباب التخفي وأمر علياً ﷺ أن يبيت على فراشه، ويتسجى ببردته الخضراء، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه بإذن الله، وانتظر المشركون خارج بيته ﷺ لوقت خروجه إلى المسجد الحرام، ولكن الله غالب على أمره، حفظ الله نبيه ﷺ، وخرج من بين أيديهم وهو يذر على رؤوسهم التراب وهو يتلو: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَداً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَداً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ

(١) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ٥٥٣/١.
(٢) سيرة ابن هشام ٤٧٧/١.
(٣) سيرة ابن هشام ٤٨٢/١، وزاد المعاد ٥٢/٢.

يُبْصِرُونَ﴾[يس: ٩]، فخرج إلى أبي بكر، وسلكا الطريق الذي يضاد طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالاً، فأتبع طريقاً جنوب مكة والمتجه نحو اليمن، سلكا نحو خمسة أميال حتى انتهي بهما الطريق إلى غار في جبل، عُرِفَ في التاريخ بغار ثور، وكمنا في الغار ثلاث ليال، وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما ليأتيهما بخبر القوم، وكان يرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم ليتبع أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليُعَفِّي عليه(١).

أما قريش فقد جن جنونها لإفلات رسول الله ﷺ، وأخذت تبحث عنه في الجبال والوديان والهضاب، حتى وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا. قال رسول الله ﷺ: "ما ظنك يا أبكر باثنين الله ثالثهما" (٢). فحمى الله عز وجل نبيه وستره عن أعين المشركين، ثم تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة، وقد استأجرا عبدالله بن أُريقط الليثي وكان ماهراً بالطريق، وكان على دين كفار قريش، وأمناه على ذلك، وسلما إليه راحلتيهما، ثم ارتحلا على طريق السواحل، وسلك بهما الدليل طريقاً لم يكن يسلكه أحداً إلا نادراً، حتى وصلا إلى المدينة، والصحابة في انتظار رسول الله ﷺ، وكل واحد منهم يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا حطام راحلته ويقولون: هلم إلى العدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم ﷺ: " خلوا سبيلها فإنها مأمورة".. وهكذا كانت كل خطوات النبي ﷺ تسير بالله وبأمره وبرعايته وبحفظه، وهذا لم يمنع النبي ﷺ من الأخذ بكامل الأسباب في هجرته، مع حسن توكله على ربه، ويقينه في ولايته له، ويقينه في تدبيره سبحانه للأمر بحكمته ورحمته، وهكذا هاجرت الفئة المؤمنة الأولى فراراً بدينها، بعد تخليها عن القيم الزائلة من زينة الحياة الدنيا.. هاجروا أخذاً بالأسباب التي أمرهم الله بها في كتابه الكريم بعدما أحسنوا التوكل على ربهم الكريم.

ملامح من صلح الحديبية واليقين في تدبير الله للأمر وفق علمه الشامل

رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة ،وطافوا

(١) سيرة ابن هشام ٤٨٦/١
(٢) صحيح البخاري ٥١٦/١، ٥٥٨.

واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوا مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر، خرجوا سنة ٦هـ في ألف وأربعمائة[1] ولم يخرجوا بسلاح، إلا سلاح المسافر: السيوف في القُرب، تحرك المسلمون في اتجاه مكة ،فلما كانوا بذي الحُليفة، أحرموا بالعمرة، وقلَّدوا الهدي، فجاءه ﷺ: أن قريش جمعوا لك الجموع، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ،فاستشار النبي ﷺ أصحابه، فقال أبو بكر: إنما جئنا معتمرين، ولم نجيء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال لهم النبي ﷺ: "فرُوحُوا إذًا". وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فألَحَّت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل" ثم قال: " والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ". ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية.

ثم أرسلت قريش رسلاً إلى النبي ﷺ تتوسط إليه للرجوع عن البيت، وأرسل النبي ﷺ لهم عثمان بن عفان يبلغهم أنما جئنا عماراً، ويدعوهم إلى الإسلام، فانطلق عثمان، ثم أشيع مقتله، فاستنفر المسلمون وأخذ رسول الله ﷺ بيعة الرضوان منهم تحت الشجرة، وعرفت قريش ضيق الموقف فأسرعت إلى بعث سُهيل بن عمرو لعقد الصلح وفيه: أن يرجع عنا عامه هذا، حتى لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها عنوة علينا، وأُبرم الصلح، ولما فرغ رسول الله ﷺ منه، قال لهم: " قوموا فانحروا " فوالله ما قام منهم أحد، حتى قالها ثلاث مرات، فدخل على أم سلمة، فأشارت إليه بأن يخرج عليهم ويدعو حالقه وينحر بدنه، ففعل ﷺ وفعل الناس، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، وكانوا في حزن شديد ووساوس وظنون، حتى قال عمر: ألسنا على حق وهم على باطل يا رسول الله، فلما نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال رسول الله ﷺ: "ابن الخطاب، إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، ولن يضيعني أبداً"، قال: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: " بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ " قال: لا. قال: "فإنك آتيه ومطوف به". ونزلت سورة الفتح، وقال عمر: أو فتح هو؟ قال رسول الله ﷺ: " نعم ". فطابت نفسه ورجع..

وهكذا مرت الفئة المؤمنة الأولى في طريق إقرارها دين الله في الأرض، بحادثة غريبة الدلالة، بدا لهم من نتائجها

(١) وقيل: ألف وخمسمائة.

الظاهرة والقريبة، أنها ليست في صالحهم أو صالح دعوتهم، وذلك في ضوء العلم البشري القاصر، الذي يغيب عنه تدبير الله الخفي، والذي دوماً ما يكون في مصلحة المؤمنين المستقيمين على منهج الله القويم، وهذا ما كان عليه يقين رسول الله ﷺ: بجميل تدبير الله لهم الأمر بحكمته ورحمته، ووفق علمه الشامل للأمور.

ملامح من فتح مكة وإقرار الحق في الأرض بسلطان الله

قال ابن القيم: "هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض "(١).

خالفت قريش صلح الحديبية بمناصرتها بنو بكر على خُزاعة، والتي كانت في عهد رسول الله ﷺ، فتحرك النبي ﷺ قاصداً مكة، وأمر الناس بالتجهز للزحف والقتال، فتحرك في عشرة آلاف من الصحابة رضى الله عنهم، ووقف أبو سفيان مع العباس عم النبي ﷺ بمضيق وادي من الظهران إلى مكة، وأمر النبي ﷺ العباس أن يحبسه حتى يرى جنود الله حين تمر به، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء؟ فيقول: كذا وكذا حتى مرت القبائل كلها، ثم مر به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، قال: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة. ثم قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليوم عظيماً، قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن.

دخل رسول الله ﷺ مكة ووزع جيشه وقال لهم: " إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً، حتى توافوني على الصفا". وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منه، ودخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام وطهره من الأصنام، وهو يقول ﴿ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[الإسراء: ٨١]، وأذعن أهل مكة لرسول الله، وبايعوه على الصفا، وأمر رسول الله ﷺ بإهدار دماء رجال من أكابر المجرمين وهم تسعة نفر، حتى لو وجدوا تحت أستار الكعبة.. وهكذا قضى الله لرسوله ﷺ بهذا الفتح

(١) زاد المعاد لابن القيم الجوزية.

الأعظم الذي قضى على الوثنية في مكة ثم في الجزيرة العربية، وأُقر الحق في ربوع الجزيرة، وكانت السيادة لدين الله، وقد بدأ طور التمكين للمسلمين المستضعفين في مكة بعد هجرتهم إلى المدينة، مع أخذهم بكل أسباب القوة والجاهزية، ثم كان صلح الحديبية تحولاً لصالح المسلمين وإن غاب عنهم تدبير الله الخفي في بدايته، حتى كان الفتح المبين، واستمر المسلمون في تطوير أسلحتهم وعدتهم، فحاصر النبي ﷺ الطائف، ونصب لهم المنجنيق، وقذف به القذائف، حتى وقعت شدخة في جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة من الخشب دخل الصحابة في جوفها، ثم دفعوها في أصل الحصن لينقبوه وهم في جوفها

وهكذا سعى الجيل الأول لامتلاك أسباب التمكين لإقرار دين الله في الأرض، وإقرار الحق بسلطان الله، فانطلقوا يطوفون مشارق الأرض ومغاربها فاتحين البلاد لتحرير العباد من عبادة العباد وردهم إلى عبادة رب العباد.

ثالثاً: ختام السورة وملخص لموضوعاتها

● قال تعالى ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾[الكهف: ٩٩-١٠١]..

مشهد يرسم الجموع البشرية مبعوثين مختلفين في غير نظام، ثم إذا نفخ في الصور فإذا هم مجتمعون في صفوف وفي نظام، ثم تبين سورة الكهف في ختامها موقف الناس المتباين إزاء الحق الذي عرضه كتاب الله، فحينئذ تُزال الغشاوة عن أعين الذين أعرضوا عن قبول الهدى واتباع الحق الذي أنزله الله عز وجل، وحينئذ يتخلى عنهم الأنصار الذين حسبوا أنهم سيدفعون عنهم سلطان الله: ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾[الكهف: ١٠٢]، فليلقوا إذن عاقبة هذا الحسبان جهنم في انتظارهم نزلاً ومرتفقاً، أما الضالين عن سبيل المؤمنين، المنحرفين عن صراط الله المستقيم، الذين عبدوا الله على غير طريقة مرضية، وهم يحسبون أنهم مصيبون فيها، وهم يحسبون أن عملهم مقبول، فهؤلاء خاب سعيهم وجهدهم، فلم يؤد بهم إلى الهدى، ولم ينته بهم إلى ثمرة، أنفقوا حياتهم هدراً، هؤلاء هم الأخسرين أعمالاً: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً(١٠٤) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً [الكهف:

١٠٣- ١٠٥] هؤلاء لم ينتفعوا بكتاب الله وأعرضوا عن تعلمه وفهمه، هؤلاء ضلوا بجهلهم وحسبوا أنهم مهتدون! فلا يقام لهم القيامة وزناً، أما المؤمنين الذين مضوا على صراط الله المستقيم، واتبعوا منهجه القويم الذي ليس له عوجاً، فيصلون إلى جنة الفردوس لتكون لهم نزلاً لا يبغون حنها حولاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[الكهف: ١٠٧ - ١٠٨]..

وفي الختام :تؤكد لنا سورة الكهف التي عرضت لنا العلم النافع في سياق قصص السورة أن علم البشر الذي يظنوه واسعاً غزيراً، فهو كالبحر محدود، أما كلمات الله الدالة على العلم الإلهي فلا حدود له، ولا يدرك البشر نهايته، إن ما يتعلمه الإنسان من علم الله ضئيل قليل، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود، قال تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[الكهف: ١٠٩]، فليعلم الإنسان ما يعلم، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه أن يكون البحر مداداً في يده، وسينفد البحر، وكلمات الله ليست إلى نفاد، ولو أمده الله بأبحر مثله، ثم تختم السورة بالتوحيد كما بدأت ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[الكهف: ١١٠]، وتضع ركني العمل المقبول: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون موافقاً لشريعة رسول الله ﷺ :﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[الكهف: ١١٠].

رابعاً: علاقة فتنة المسيح الدجال بسورة الكهف

أمر النبي ﷺ بقراءة فواتح سورة الكهف للعصمة من فتنة المسيح الدجال، وفي بعض الروايات قراءة خواتيمها، وذلك بقراءة عشر آيات من أولها أو آخرها.

ومن الأحاديث الواردة ما جاء في مقدمة عرض سورة الكهف، ونذكر هنا الحديث الصحيح الذي رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان، حديثاً طويلاً.. وفيه قوله ﷺ: " من أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف"[1].

(١) رواه مسلم (٦٥/١٨) الفتن.

قال مسلم: " قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف" [١].

- والسؤال: ما هي علاقة فتنة المسيح الدجال بسورة الكهف؟ وللإجابة بعون الله وتوفيقه عن هذا السؤال، نذكر مختصر عن طبيعة هذه الفتنة:

إن فتنة المسيح الدجال هي أكبر فتنة منذ خلق الله لآدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، كما يقول الرسول ﷺ: " ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال " وفي رواية " أمر أكبر من الدجال " [٢].

الدجال سيدَّعي أنه إله من دون الله جل وعلا، كبرت كلمة تخرج من فيه، وسيعطيه الله عز وجل من القدرات والإمكانات ما يكون سبباً للفتنة والابتلاء، لأن الحياة على هذه الأرض مبنية على الابتلاء والاختبار، قال تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الكهف: ٧].

- ومن هذه القدرات والإمكانات التي أعطاها الله للدجال:

- ما جاء أن معه ما يشبه الجنة والنار: قال رسول الله ﷺ: " وإن من فتنته أن معه جنةً وناراً، فناره جنة، وجنته نار، فمن ابتُلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف"[٣].

- ومن فتنته أنه يتجول بين البلدان بسرعة تفوق الخيال، فلقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: "كالغيث استدبرته الريح " لذلك فهو سيطوف الأرض ويدخل كل بلد على وجه الأرض فيما عدا مكة والمدينة.

- ومن فتنته أنه يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت، قال ﷺ: " فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له.. فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت.. " [٤].

(١) ذكره مسلم (٩٢/٦) صلاة المسافرين.
(٢) رواه مسلم (٢٩٤٦) الفتن وأشراط الساعة.
(٣) رواه ابن ماجة والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٧٥).
(٤) رواه مسلم (٢١٣٧) الفتن.

- ومن فتنته الاستعانة بالشياطين، قال ﷺ ".. وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه، فإنه ربك.." [١].

- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثاً طويلاً عن الدجال، فكان مما حدثنا أنه قال: " فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، أو من خير الناس. فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه. فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته، أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه. فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن، قال فيريد الدجال أن يقتله فلا يُسلّط عليه "[٢].

وأكثر أتباع الدجال من اليهود والعجم والتُرك، وأخلاط من الناس، غالبهم الأعراب والنساء، وأكثر أتباعه من الجُهَّال، فعن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يخرج الدجال في خفقة من الدين وإدبار من العلم.. ﴿فذكر الحديث وفيه: ثم ينزل عيسى بن مريم، فينادي من السحر، فيقول: أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذَّاب الخبيث.."[٣]. فيقتله عيسى عليه السلام بحربته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم وبقتله – لعنه الله – تنتهي فتنته العظيمة، ويُنجي الله الذين آمنوا من شره وشر أتباعه.

- إن الدجال إذا خرج يعرفه المؤمنون، فلا يفتنون به، بل يكونوا على علم بصفاته التي أخبر بها الصادق ﷺ: قال رسول الله ﷺ: " ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر "[٤].

وهذه الصفات تميزه عن غيره من الناس، فلا يغتر به إلا الجاهل، وسيعرفه المؤمن حتى من لا يعرف الكتابة، سيخلق الله له إدراكاً دون تعلم، بينما الكافر لا يرى الكتابة التي بين عينيه حتى لو كان يعرف الكتابة [٥].

(١) نفس الحديث الأول الذي رواه ابن ماجة والحاكم.
(٢) رواه مسلم (٢٩٣٨) الفتن.
(٣) الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد (٢٤/ ٨٥ – ٨٦)، قال الهيثمي: رواه أحمد بإسناده رجال أحدها رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد (٧/ ٣٤٤).
(٤) رواه البخاري (١٣/ ٩١) الفتن ومسلم (٢٩٣٣).
(٥) فتح الباري (١٣/١٠)

وأشار الرسول ﷺ على كونه أعور، لكون العور أثراً محسوساً يدركه العالم والعامي، ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، وإلا فإن أصحاب العلم يمكن أن يدركوا أمره، ويصلوا إلى حقيقة دعواه الكاذبة.

** ومما سبق نجد بعون الله وتوفيقه أن مناسبة قراءة فواتح أو خواتيم سورة الكهف للعصمة من فتنة الدجال في الأسباب التالية والله أعلم:

أولاً: لتركيز سورة الكهف على حماية جناب التوحيد في أولها وآخرها، وقال تعالى على لسان فتية أصحاب الكهف ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾[الكهف:١٤]، وقوله تعالى في آخر السورة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[الكهف: ١١٠]، ولأن الدجال سيدَّعي الربوبية ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾، فالتوحيد عصمة بإذن الله من هذا الادعاء الكاذب القبيح.

ثانياً: لتركيز سورة الكهف على تعلم العلم، والحث على مواجهة الجهل الذي هو سبب كل شرك وكل ضلال: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (٤) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ﴾[الكهف: ٥]، وقوله تعالى ﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾[الكهف: ١٥]، ولأن الدجال أعور، والله ليس بأعور– تعالى الله عما يصفون– وأننا لن نرى ربنا حتى نموت، أما الدجال فيراه الناس في الدنيا، وكل هذه علامات يدركها أهل العلم ويفتن بها الجاهلون.

ثالثاً: لأن موضوع سورة الكهف يدور حول غرس الاستعانة بالله، و الاعتصام به سبحانه وتعالى، والاحتماء بكنفه جل في علاه في حالة الفتن ﴿ إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[الكهف: ١٠]، وقد ركزت السورة على الحديث عن الفتن، كفتنة المال والجاه، وفتنة زينة الحياة الدنيا، وفتنة العلم، وفتنة السلطان، وفتنة يأجوج ومأجوج، والسورة تدعو إلى الاعتصام بالله والاستعانة به من هذه الفتن،

ومن الاعتصام بالله والاستعانة به أن ندعوه أن ينجينا من شر فتنة المسيح الدجال، ومن الاعتصام بالله والاستعانة به أن نفزع عند خروج الدجال إلى كتاب الله، ونتسلح بآياته كسورة الكهف والله أعلم.

رابعاً: ذكر سورة الكهف لآيات عجيبة تبهر العقول، ومنها ما حدث مع فتية الكهف ونومهم لثلاثمائة وتسع سنين ثم بعثهم، ومنها ما حدث مع الخضر عليه السلام، ومنها طواف ذو القرنين مغارب الأرض ومشارقها وتذليل الله له ذلك، وقد جاء في أول سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ [الكهف: ٩]دليل على أن آيات الله العجيبة التي تبهر العقول ليس لها حد، وكلها تحدث بإذن الله ومشيئته، لذلك فالخوارق التي يخلقها الله مع الدجال، والتي تبهر العقول، قد اعتاد المؤمن القارئ لسورة الكهف على مثلها، لذلك والله أعلم ستعصمه السورة من الانبهار بخوارق الدجال ليقين المؤمن أنها تجري له بمشيئة الله وإذنه وقدره انتهى والله أعلى وأعلم.

بين سورتي الكهف ومريم

عرضت لنا سورة الكهف بعض آيات الله العجيبة التي تُظهر طلاقة قدرته سبحانه، ومنها أمر هؤلاء الفتية الذين مضوا في الدهر الأول، ودخلوا كهفاً فأنامهم الله فيه ثلاث مائة وتسع سنين: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾[الكهف: ٢٥]، ثم تأتي سورة مريم ببعض آيات الله العجيبة التي تُظهر طلاقة قدرته سبحانه، ومنها ميلاد يحيى عليه السلام ،وأمه عاقر، وأبوه بلغ من الكبر عتياً: ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾[مريم: ٩]، ومن هذه الآيات العجيبة أيضاً ميلاد عيسى عليه السلام بدون أب: ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً﴾[مريم ٢١]، فتتناسب السورتين في عرض آيات الله العظيمة التي تظهر طلاقة القدرة الإلهية .

وكما جاءت سورة الكهف بعرض صور من مظاهر رعاية الله لعباده المؤمنين الضعفاء، قيوميته لهم من أمرهم مرفقاً: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾[الكهف: ١٧]، جاءت سورة مريم كذلك بعرض صور من مظاهر رعاية الله وقيوميته لعباده المؤمنين الضعفاء، كرعاية الله لمريم وهي في مخاضها: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ

رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾[مريم: ٢٤-٢٦].

وكما بينت لنا سورة الكهف ضرورة اعتزال أهل الشرك بعد حسن دعوتهم، وحسن الصبر عليهم: هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ [الكهف:١٥-١٦]، كذلك أكدت سورة مريم على: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِياً﴾[مريم :٤٨].

وكما جاءت سورة الكهف بتوحيد الله وتنزيه سبحانه عن الولد والشريك :﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (٤) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً﴾[الكهف: ٤- ٥]، جاءت أيضاً سورة مريم بتوحيد الله وتنزيه سبحانه عن الولد والشريك: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداً (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَداً (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾[مريم: ٨٨- ٩١]..

وأخيراً ختمت سورة الكهف باقة " تمام الاستعانة بالله "، لنبدأ مع سورة مريم – العابدة – باقة " تمام العبادة الخالصة لله "، والتي تمهد لها سورة الكهف في آخر آياتها بقوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[الكهف: ١١٠].

تم بعون الله وتوفيقه عرض سورة الكهف،

فلله الحمد والثناء الجميل، وصلى اللهم على سيدنا محمد

ﷺ وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

الخريطة الكلية لعرض سورة الكهف
سورة الكهف
(110) آية
الهدف العام للسورة :
" الأخذ بالأسباب التي هدانا الله إليها في كتابه القويم لإقامة دينه ، مع حسن الاستعانة به سبحانه في كل الأمور"
الوحدة الموضوعية للسورة :
" رعاية الله لأوليائه المستمسكين بتوحيده، الملتجئين إلى كنفه، مع تدبيره سبحانه لكافة شئونهم برحمته وحكمته"
المقطع الأول (من الآية 1: 27)
قيام المؤمنين بواجبهم في حال الاستضعاف يستجلب رعاية الله لهم رعاية كاملة
أولا: القرآن هو العلم النافع القيم وواجبنا هو فهمه وتعلمه
ثانيا: واجب المؤمنين في حال الاستضعاف : صدع واستقامة .. مفاصلة وهجرة
ثالثا: قيمة الحقة المؤمنة في ميزان الله
المقطع الثاني (من الآية28: 59)
حقيقة الحياة الدنيا وفتنها وكيفية مواجهتها
أولا: الصبر على صحبة الأخيار الزاهدين في زينة الحياة الدنيا
ثانيا: حوار بين كافر مغرور بزينة الحياة ومؤمن فقير معتز بالله
ثالثا: هذه هي حقيقة الحياة الدنيا : زينة .. فتنة
المقطع الثالث : (من الآية 60 :82)
الصبر على تحصيل العلم ، والتيقن من تدبير الله للأمور بحكمته ورحمته وفق علمه الشامل
أولا: السعي لتحصيل العلم والصبر عليه مع رد العلم لله
ثانيا: التيقن من تدبير الله الخفي لأمور العباد بحكمته ورحمته وفق علمه الشامل
المقطع الرابع : (من الآية 83 : 110)
مهمة المؤمنين في طور التمكين هي إقرار الحق بسلطان الله
أولا: مهمة المؤمنين في طور التمكين هي إقرار الحق بسلطان الله
ثانيا: ضرورة السعي الى امتلاك أسباب التمكين التي أمر الله بها
ثالثا: ختام السورة وملخص لموضوعاتها
رابعا: علاقة فتنة المسيح الدجال بسورة الكهف . والله أعلم .